الفصل الثالث

الاستطراد

«ثقوا أن هذه الاستطرادات ربما كانت أنفع لي ولكم من مجرد سرد الوقائع».

علي الطنطاوي – ذكرياته: ٧/٢٢٢، ٢٩٤

الفصل الثالث
الاستطراد

أولاً: المصطلح والقضيَّة:

الاستطراد سمة بارزة في (ذكريات علي الطنطاوي). وهي ظاهرة فنية وأدبية معروفة في أدبنا العربي قديماً وحديثاً، ومنهج من مناهج القول وأساليبه الماتعة التي سلكها الأدباء في التعبير عن أفكارهم ونقل معانيهم إلى الناس.

وقد تنبَّه إليه نقادنا القدامى وعرّفوه على الإجمال بـ: «**أن يأخذ المتكلّم في معنى فبينا يمرُّ فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه**»[1] وعدّوه – على الإجمال أيضاً – بلاغة من بلاغات الكلام شعراً ونثراً، وسبباً من أسباب جماله، والقدرة على تلوينه، وحسن التصرف فيه وتوجيهه[2].

ولكنَّ النقاد المعاصرين[3] يرون في الاستطراد رأياً آخر. فهم يَعدّونه عيباً يقلل من جمال العمل ورِوائه؛ لما يورثه من وهنٍ في أسباب اتصاله، لاسيما في الأعمال الأدبية القائمة على السرد وتنامي الأحداث لأنها – على وجه عام – سلسلة متصلة من التطورات والأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض بعناية وإحكامٍ فائقين. وحين

---

(١) أبو هلال العسكري: الصناعتين: ٤٤٨.

(٢) يراجع ماكتبه: أبو هلال العسكري في: الصناعتين: ٤٤٨–٤٥١، وابن رشيق القيرواني في: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٣٩/٢–٤٤، ويحيى بن حمزة العلوي في الطراز: ٤٠٤–٤٠٦ وقد نص العلوي على ذلك فقال: (بخلاف الاستطراد فإنه حسن كلّه). ولاشك أن الأمر على التفصيل ويعود إلى المقام والحال فما يحسن في حال ويصح في مقام قد لا يحسن ولا يصح في مقام أو حال آخر.

(٣) ينظر مثلاً: د. محمد نجيب التلاوي: طه حسين والفن القصصي: ٣٣، ٢٤٦ ود. أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها: ٥٦٠، ود. يحيى عبدالدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: ٢٩١، ١٩٣ ود. محمد يوسف نجم: فن القصة: ٧٠–٧٢، ود. هاني العمد: دراسات في كتب التراجم والسير: ٣٤–٣٥ ود. فوزي عطوي: جبران خليل جبران عبقريٌ من لبنان: ٧٥، والمدخل لدراسة الأدب واللغة: ٦٠.

يضعف الاتصال بين أجزاء العمل الأدبي تتبعثر عناصره وتضيع وحدته الموضوعية ويفقد تماسكه العضوي؛ يشعر القارئ إذ ذاك بضعف سيطرته على العمل وعجزه عن إدراك دقائقه وأحداثه، ومن ثَمَّ يفقد جزءاً كبيراً من استمتاعه به وإحساسه بجماله.

وهذا الرأي صحيح إلى حدٍّ بعيدٍ، ولكنه يظل رأياً قاصراً. وقصوره يعود إلى أنه يسلط ضوء النقد من خلال زاوية جمالية واحدة فقط تهتم بتجانس العمل الأدبي ووحدته الموضوعية والفنّية.

ومهما يكن من أمر فإن النظرة إلى الاستطراد من خلال هذه الزاوية دون غيرها – على وجاهتها – يُعَدّ قصوراً بيِّنًا في دراسة (الاستطراد) عند رجل مثل الطنطاوي أصبح علماً معاصراً عليه في كتاباته الأدبية والفقهية، وفي أحاديثه ومحاوراته الإذاعية والتلفازية.

وأحسبُ أن إغفال هذا الجانب المهم إهدارٌ (لظاهرةٍ) أدبية كبرى لدى الطنطاوي يكاد الباحث يجزم بها بالإضافة إلى عناصر أخرى كالعفوية والبعد عن التكلف تعليلاً لنجاحات الأحاديث الطنطاوية التي تبث من خلال الإذاعة والتلفاز بالمملكة العربية السعودية، ولانجذاب جمهور عريض من المستمعين والمشاهدين إليها وحرصهم على متابعتها وفهمها حتى بعد توقف الطنطاوي عن تسجيل الجديد منها وإذاعتها سنين عديدة. وذلك لما يتوافر فيها من مرونة وحريّة في توجيه مسار الحديث حيث تقتضيه المصلحة وتدعو إليه المناسبة في تحنُّنٍ أبويّ شفيف وواضح[1].

وقد لاحظ الباحث شيئاً من فتور أصاب هذه (الأحاديث) الطنطاوية خلال برنامج (على مائدة الإفطار) لعام ١٤١٧هـ وإن ظل البرنامج الديني الأشهر في الإذاعات والتلفزيونات العربية للعام نفسه[2]. وحين راجع الأمر وتأمله بشيء من

---

(١) يُرجع الدكتور أحمد بسام الساعي نجاح هذه الأحاديث والمحاورات إلى مايسميه: (البُعد الرابع في الأدب) ويعني به الإلقاء، ينظر: كتابه: الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد: ١٣٢–١٥١.

(٢) حسب الاستطلاع العام الذي قامت به جريدة الشرق الأوسط. ينظر: مجلة الشرق الأوسط تي في T.V.
=

الحرص والمتابعة وجد أن بعض العاملين على إعداد الأحاديث وتسجيلها قد قام بما يظنّه تشذيباً لها فحذف هذه الزّوائد والاستطرادات؛ ليبقى الحديث سائراً ضمن اتجاه وحيد هو صلبُ الموضوع ولبّ القضية[1].

وهذا العمل وإن أعطى الحديث الطنطاويّ عمقاً بيناً وإيجازاً، أو أسهم في زيادة شعور المستمع والمشاهد بهما؛ إلا أنه أفقده صبغةً واضحة المعالم للحديث الطنطاوي وميزة واسعة التأثير؛ لأن الاستطراد لما يمنحه من إحساس بالحرية والانطلاق في توجيه الحديث (مكتوباً أو مسموعاً) يقويّ من العَلاقة الحميمة بين الأديب (كاتباً أو شاعراً أو خطيباً... إلخ) والمتلقى. وغنيٌّ عن القول: إن الكلمة (مسموعة أو مقروءة) لا يعودُ نجاحها في إيصال خطابها فكريًّا أو اجتماعيًّا، وتأثيرها إلى الأسلوب في حدّ ذاته؛ من حيث هو كلماتٌ وحروفٌ وعَلاقات فقط، ولكنه يكتسب شيئاً غير يسير من قوته وتأثيره من شخصية المبدع وطبيعة العلاقة بينه وبين المتلقي، ومن الملابسات والظروف المحيطة بالعمل، والمنهج المتبع في تقديمه، ومن الحالة النفسية التي تتغشى المتلقي إبان قراءته أو استماعه للنص.

وفي اعتقادي أن الحديث عن (الاستطراد) في فصل كهذا لا يكفي ولا يشفي؛ فحقّهُ أن يفرد بدراسة مستقلة تبحث في أسباب وجوده عند الطنطاوي، وفي قيمته الفنية والإبلاغية. ودراسة كتلك بحاجة إلى دراسات أخرى تقوم عليها وتوسع بها خلفية الدّرس الأدبي والنقدي الذي تنطلق من خلاله أثناء تعاملها مع هذه الظاهرة في أدب الطنطاوي؛ خاصّة أن الطنطاوي ليس الرّجل الوحيد الذي مال إلى الاستطراد وسعى إلى الإفادة منه وتوظيفه. وإن تميز من غيره من الأدباء بكثافة

=

دليل المشاهد العربي العدد: ١٣٨ في ١٩٩٧/٣/٣١م ص١٣، وتحديد هذا العام (١٤١٧هـ) لأنه العام الذي كُتب فيه الفصل.

(١) الذي تولى ذلك هو: الأستاذ عبدالله روّاس المخرج التلفزيوني للبرنامج. وقد وضح لي في مهاتفة معه صبيحة يوم السبت ١٤١٨/٢/١٦هـ أنه كان مدفوعاً إلى ذلك بالمساحة الزمنية المحدودة الممنوحة للبرنامج وهي أقل بكثير منها في الدورات التلفزيونية خلال السنوات الماضية مما جعل الاختصار أمراً لابدّ منه، وقد وضح لي أيضاً أنه جاهد نفسه كثيراً في الإبقاء على روح الحديث ونكهته وحرص على تقديم صلب الموضوع، وأن هذا تطلب منه عملاً طويلاً متواصلاً، أحسن الله إليه.

استطراداته وطولها وبخصوبتها واتساعها لعدد من القضايا الفكرية والاجتماعية واللغوية والأدبية المختلفة.

وما يدعو إلى التأمل بحق أن الاستطراد لا يظهر إلا عند طائفة من الأُدباء ممن جمعوا إلى ملكة البيان تجارب ثرَّة متنوعة، وثقافة موسوعية هائلة، وهمًّا تنويريًّا يدفعهم دَفعاً إلى التعليم والتثقيف أو الإصلاح والتغيير على اختلاف منازعهم ومشاربهم وتوجهاتهم[١].

لذلك وجدنا أستاذاً كبيراً مثل الدكتور شوقي ضيف يردد بشيء من الارتياح والرضا مقالة ابن العميد عن كتب الجاحظ التي يقول فيها: «إن كتب الجاحظ تعلم العقل أوّلاً والأدب ثانياً»[٢]. وما ذاك إلاّ لأن الجاحظ إمامٌ من أئمة المعتزلة الذين يبجلون العقل ويعيشون به ويحتكمون إليه؛ فاستطراداته في غالبها إما انتصار لشيء أو استدلالٌ عليه أو محاورةٌ فيه. حتى تلك الاستطرادات التي يباسط فيها قارئه بنوادر الأعراب ومُلَح المغفلين وحكايات النوكى والبخلاء يملأها بالجدل والقياس والمناظرة مما يذكي في القارئ نزعته العقلية وفي معيّة ذلك يمتعه ويُسلّيه.

وأحسبُ أن الباحث لا يجاوز الصواب إذا قال شيئاً كهذا عن الطنطاوي؛ فكتبه ورسائله: تُصلِح وتثقف أوّلاً وتعلم الأدب ثانياً، وهو نفسه يقول: «ما أنا بتارك الكتابة، وإن من الكتابة لعلماً وإن منها لإصلاحاً»[٣]. وبهذا نكون قد قدَّمنا أحدَ الأسباب المهمّة التي تفسّر وجود هذه الظاهرة الأدبية في الذكريات؛ فالطنطاوي لم يشأ لذكرياته أن تكون قصَّة حياة بالمعنى المتعارف عليه ولكن أرادها أيضاً وسيلة من وسائل الإصلاح والتعليم والتوجيه، أي: أرادها امتداداً للاتجاه الدّعوي الذي انتهى إليه نشاطه في الآونة الأخيرة واقتصر عليه.

أما الدّافع الثاني فيعود إلى إحساسه الضّاغط بوجود القارئ، واستحضاره في

---

(١) يذكر الباحث منهم: الجاحظ، وأحمد فارس الشدياق، وجبران خليل جبران، وطه حسين، وأحمد أمين، وزكي مبارك، ومحمد حسين زيدان، وحمد الجاسر، وأبا عبدالرحمن بن عقيل الظاهري.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ١٧٦.

(٣) أنور الجندي: المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام ١٨٤٠–١٩٤٠م: ٧٦٠.

وعيه أثناء الكتابة حتى كأنما هو يجلس إليه ويستمع منه؛ فيجنح تحت وطأة هذا الشعور إلى مخاطبة القارئ ومحادثته وممازحته. وربّما تجاوز أثر القارئ مجرد الإحساس به ومخاطبته إلى حيث يصرفه عن وجهته إلى الإجابة عن أسئلته واستفساراته، وتلبية طلباته ورغباته.

والطنطاويُّ – وهذا ثالثاً – يعتمد على ذاكرة – برغم حدّتها – تخضع لما يخضع له قانون الاستدعاء والاسترجاع من تأثر بما يعرف عند علماء النفس بـ (تداعي المعاني والأفكار). فكل فكرة أو موقف يذكر بما يشابهه أو يجاوره أو يضادّه[1]؛ لاسيما حين لا يتوافر للكاتب من الوثائق اليومية والرسائل اللازمة ما يعينه على تقديم حياته للناس بشكل أكثر انسجاماً وأدق نظاماً. وقد عَبّر الطنطاوي عن ذلك فقال:

«إذا أردتُ أن أكتب ذكرياتي (وهذا ما أصنعه الآن) أنظر، فما أجده في ذاكرتي أنقله إلى الورق، أو إلى (المسجِّلة) أثبته بصوتي في شريطها... وفي الذّاكرة ما لا أُحصيه من الحوادث والمشاعر وأوصاف الناس وأخبارهم، ولكنها لاتحضر إلا من طريق تداعي[2] الأفكار، فالشيء يذكِّر بمثيله أو بنقيضه، أو بما هو مقترن به، أو بما هو متفرِّعٌ عنه، أو مرتبط به»[3].

وقد أشارت الدّراسة[4] فيما مضى – وهذا رابعًا – إلى أن الطنطاوي قد منح نفسه حرِّيَّةً مطلقةً في تشكيل ذكرياته، وأعلن أنه يسير فيها سير السائح لاسير الجُندي[5]، وأنّه كالرّاعي يؤم بشويهاته مساقط المطر، ومنابت الكلأ[6]... إلخ ما ذكره بهذا الصدد في أماكن متفرقة من (ذكرياته).

---

(١) ينظر: عبدالمجيد عبدالرحيم: علم النفس التربوي والتوافق الاجتماعي: ٢١٢ وجميل صليبا: علم النفس: ٤١٧–٤٢٠.

(٢) في الأصل: الدّاعي الأفكار، وهو خطأ مطبعي، والتصويب من الباحث.

(٣) الذكريات: ٤/٢٠٩–٢١٠.

(٤) كان ذلك عند الحديث عن (ملامح السرد في الذكريات)، في الفصل الأول من الدراسة الفنيّة.

(٥) الذكريات: ١/١٢، ٧/٢٩٤.

(٦) السابق: ٦/٢٣٤، ٧/٨٧.

ولاشك أن الحرّية بالمعنى الذي قصده الطنطاوي دافع قوي إلى الاستطراد؛ لأنها تعين الكاتب على أن يذهب مع خطرات نفسه يميناً وشمالاً ما شاء له ذلك.

وقد ذكر الكاتب طائفة أخرى من الأسباب التي تفسّر ظهور الاستطراد وتعلل له في كتابه موضع الدّراسة يمكن إضافتها إلى ما ذكرناه آنفًا، يقول الطنطاوي:

– «**أنا أعرف أن من عيوبي الاستطراد. ولكني لا أملك التخلص من هذا العيب. ولعلّه من أثر إدمان النظر في كتب الأدب العربي القديم، كتب شيخنا الجاحظ ومن نحا منحاه واتبع أثره. وأنا عاكفٌ على هذه الكتب أنظر فيها لا أفارقها من يوم تعلمتُ القراءة وأنا ابن عشر سنين إلى أن جاوزتُ الثمانين**»[1].

ويقول مبينًا دافعًا آخر من دوافع الاستطراد لديه، هو الرغبة في تعليم القارئ:

– «**... ولعل من أسباب ذلك أني أجد في ذهني بحمد اللّه الكثير، وأنني أحبُّ أن أقدّم للقارئ كلّ ما أجد في ذهني، فتجرني المسألة إلى مسألة تشبهها أو تتصل بها، فلا أزال أبتعد عن الطريق التي كنت أمشي حتى أنتهي من هذه الأفكار العارضة...**»[2].

وهذان النّصان يدلان – من جهة ثانية – على أن الطنطاوي قد وعى (الاستطراد) منهجاً ذا أهدافٍ وغاياتٍ متنوِّعة يمكن تركيزها بلغة الكاتب نفسه في كلمتين تندرج تحتهما جميع الاستطرادات التي حفلت بها (الذكريات) هما: المتعة والمنفعة[3]. يقول الطنطاوي منبهاً إلى هذه الفكرة أثناء تعليقه على بعض استطراداته:

«**لقد خرجتُ عن الخط لكن لا كما يخرج القطار عن القضبان فينهار ويسبب الهلاك والدّمار، ولكن كما يميل المسافر إلى الواحة فيها الظلّ والماء؛ فيجد**

---

(١) السابق: ٢٨٧/٨.

(٢) السابق: ٢٣٧/٨.

(٣) يراجع المبحث الأخير من هذا الفصل: (رابعاً: الاستطراد بين النفع والإمتاع).

فيها الرّاحة والرِّيّ. فعفوكم إن جرتني المناسبة إلى سرد قصة ليست من صلب الموضوع، ولكن أرجو أن يكون من سردها متعة أو منفعة...»[١].

ويقول في موضع آخر:

«هذا دائي – أي الاستطراد – أذهب يميناً وشمالاً، ولكن آتيكم حيثما ذهبت بما ينفعكم أو يمتعكم»[٢].

ويقول أيضاً:

«أحاول في هذه الذِّكريات ألاّ أقصر القول على ما كان مني أو ما وقع لي، بل أضمنها شيئاً من الأدب يلذ ويمتع، أو قليلاً من العلم يفيد وينفع. وقد تعلمتُ هذا الأسلوب من الإمام السبكي في (طبقات الشافعية)... وكان ذلك مزية لذكرياتي عند قوم من القرّاء، كما كان عيباً عند آخرين يأخذونه عليّ...»[٣].

ولا ينبغي أن يخدع النَّاقد بما يذكره الطنطاوي من اعتراف بأن الاستطراد عيب لم يعد يحسن التخلص منه. من مثل قوله:

– **«لقد خرجت عن الخط، وهذه عادتي، أو علّتي لم أعد أستطيع منها فكاكاً فاحتملوني عليها...»**[٤].

– **«إنه داء الاستطراد الذي ابتليتُ به، وآذيتُ به القرّاء، وهم كرامٌ، فليحتملوه مني وليقبلوني عليه»**[٥].

ففي اعتقادي أن مثل هذه (الاعترافات) اعترافاتٌ مراوغة – أو بعبارة أكثر لطفاً: اعترافات موهمة – يجب ألاّ ينساق وراءها الباحث الجادّ دفعة واحدة؛ فيذهب به الظنّ إلى أن الشيخ يمقت الاستطراد ويكرهه ولكنه لازمة علقت بأسلوبه أو وهن دبّ إليه مع تقدّمه في السن لم يعد إلى تغييره من سبيل.

---

(١) الذكريات: ١/١٩٦.

(٢) السابق: ٦/٢٣٧.

(٣) السابق: ٧/١٠٧.

(٤) السابق: ٣/١١٠.

(٥) السابق: ٥/١٢٨–١٢٩.

إنما أراد الطنطاوي من تلك الاعترافات أو الاعتذارات مجاراة القرّاء والسلامة من مآخذ النُّقاد بالإقرار به (عيباً) ثم التنبيه إلى أنّه منهجٌ وطريقة في الكتابة حذقها وتجرّعها من كتب الأئمة المشهورين كالجاحظ ومن نهج منهجه من الأدباء وكالإمام السبكي من العلماء.

وما هذا القول رجماً بالغيب ولكنها حقيقة لمسها الباحث بنفسه؛ فإعلان الرّجل عن الاستطراد منهجاً وطريقة في الكتابة خلال أول (حلقة) من كتاب الذكريات المنشورة في مجلة (المسلمون)[1]، والاعتذار عنه بأنه ليس مما حَرّمته الشريعة الإسلامية فيحرص على تجنبه[2]، وكأنّه بذلك يريد أن يحمل المخالفين على الإقرار بحقيقة أدبية يعتقدها الطنطاوي أعلنها منذ قديم في مقالة نقدية له بعنوان (في التحليل الأدبي) صدرت عام (١٣٥٣هـ – ١٩٣٤م) يقول فيها:

«إن الأدب لا يعرف الجزم في الحكم، ولا يستطيع أن يقول هذا قانون التحليل الأدبي وهذا قانون النقد، كما يقول صاحب الطبيعة هذا قانون السقوط، وهذا قانون الجذب، وكما يقول صاحب الرياضيات هذا قانون تساوي المثلثات... أي: أن الأدب ليست فيه حقيقة كالحقيقة العلمية الموضوعية (*objectif*) ولكن فيه حقائق نسبية ذاتية (*SUBJECTIF*)...»[3].

وكذلك اختياره لكلمة (ذكريات) عنواناً على الكتاب، وتسويغ ذلك بالاعتماد على ذاكرة فقدتْ حدّتها وأبلت الأيام جدّتها، فتسرب إلى مكامنها

---

(١) عدد رقم ٦ في يوم الجمعة ٨/ صفر /١٤٠٢هـ، والذكريات جـ١/ ١٠-١١.

(٢) يقول الطنطاوي: **«أنا لا أستطيع أن أكتب قصة حياتي متسلسلة مرتبة، لأني أعتمد على ذاكرة فقدت حدّتها، وأبلت الأيام جدّتها، فقد أنسى الحادثة في موضعها ثم أذكرها في غير موضعها، وعيب آخر عندي هو عيب كتب الأدب العربي القديم ومن نشأ عليها وألفها، وهو الاستطراد والخروج عن الموضوع، هذا كتاب الحيوان للجاحظ مثلاً، أسأل من قرأه منكم: كم في أبوابه مما يدل عليه عنوانه؟ هل التزم فيه علم الحيوان (أي علم الحياة) أم ذهب به الاستطراد يميناً وشمالاً، هذا هو أسلوب كتبنا الأدبية فلا تلاموني –وقد نشأتُ عليها– أن أسلك سبيلها. لقد صار الاستطراد عادة لي. أعترف أنها عادة سيئة ولكن ما أكثر العادات السيئة التي لزمتنا فلم نستطع الانفكاك عنها، ولو كانت من المحرّمات لأكرهت نفسي على تركها فليس لمسلم يأتي المحرّمات أن يحتج بتعوّده عليها، ولكنها لسوء حظي ليست من المحرمات»**. الذكريات جـ١/ ١٠-١١.

(٣) ص٣.

النسيان[١]. والذّاكرة – كما تَقدم – تخضع لما يخضع له قانون الاسترجاع والاستدعاء من الاعتماد على (تداعي المعاني والأفكار).

وكذلك حرصه على أن يختار من العناوين الدّاخلية للحلقات ما يرضي نزعته إلى الحرية ويتسع لاستطراداته المتدافعة مثل: (تقلبات على الطريق)[٢]، (ذكريات عن الأساتذة والمشايخ)[٣]، (ذكريات عن الجامعة والامتحانات)، (ذكريات عن القوّة والرياضة)[٤]، (في التعليم مواقف ومساومات)، (أشتات من الذكريات عن موسم الحج)[٥]، (تعليقات وهوامش)[٦]، (خواطر وصور عن التربية والمدارس والتعليم)[٧].

وتنبيهه – أيضاً – إلى (الاستطراد) قبل الشروع فيه[٨]، وربما وضع له عنواناً جانبيًّا واضحاً يدلّ عليه ويرشد القارئ إلى أن ماتحته استطراد خارج عن صلب الموضوع[٩]. فإذا ماغفل عن ذلك أو أهمله عاد ينبه القارئ إلى العودة إلى الموضوع الأصلي أو يعتذر عنه بعبارة جلية واضحة[١٠]. كُلّ ذلك ينمّ عن إدراك الطنطاوي للاستطراد في (ذكرياته)، ووعيه به ظاهرة تخترق أفق السرد: قبل أن تبدأ وبعد أن تنتهي. ومما يدل على صدق هذا الشعور أن الكاتب لم يلبث أن تنصل من اعترافاته السابقة، وطالب – بأسلوبه المرح ودعابته الحلوة – الاستئناف ضد حكم النقاد الجائر على الاستطراد، وذلك حين وقع على مقالة علمية للشيخ أبي عبدالرحمن بن

---

(١) الذكريات: ١/٩–١٠.

(٢) السابق: ١/٢٧٥.

(٣) السابق: ٢/١٦٣، ١٧٥.

(٤) السابق: ٣/١٤٩، ١٦٧.

(٥) السابق: ٤/٢٣٩.

(٦) السابق: ٥/١١٣.

(٧) السابق: ٦/٢٣٣.

(٨) ينظر السابق: ٥/١٣٠.

(٩) للوقوف على ذلك ينظر السابق: ١/٧٥، ١٣٨، ٧/٢٤٣، ٢٦٢.

(١٠) للوقوف على ذلك ينظر: ١/٣٧، ١٩٦ و٢/٢٨، ٩٥ و٣/٦١، ١١٠، ١٤٤، ١٥٠–١٥١، ٤/١١٦ و٥/١٢٨، ١٢٩، ١٣١.

عقيل الظاهري دافع فيها عن الاستطراد دفاعاً قويًّا مُقْنِعاً من (محامٍ ذكي وخطيب مصقع) – على حد قول الطنطاوي[1].

وهذا النهج – أي توظيف الاستطراد لغايات أخرى أثناء السرد – يلتقي مع رؤية خاصة صدر الطنطاوي عنها في التعليم والوعظ والتربية تنحو إلى تقديم الأفكار عرضاً ضمن مايثيره الموضوع الأصلي من موضوعات قد لاتمت إليه بكبير صلة؛ ليقع عليها القارئ دون عناء أو توقع فتفجؤه وتؤثر فيه لأنها تأتيه من حيث لم يحتسب، أو لأنها تستثمر فيه المناسبات المختلفة بمالها من رصيد وحضور في ذهنه أو وجدانه. وليأذن لي القارئ الكريم في إيراد وصف الطنطاوي طريقته في تأديب أولاده إذ يقول:

«كنتُ ألقي عليهم النصائح أو المواعظ في كلمة عارضة... ولقد قبست هذا عن شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني – رحمه اللّه –... كان يلقي علينا الموعظة بكلمة عابرة، لتدخل آذاننا فتستقر في قلوبنا لاتخرج منها. وأنا الآن أحفظ كثيراً من الحكم والأحكام التي أخذتها منه، حتى وهو يؤدبنا بالضرب»[2].

ويبدو أن الطنطاويَّ قد وجد لهذا النهج أثراً كبيراً في نفسه؛ لذلك أثنى مراراً على شيخه (عيد السفرجلاني)[3] وعدّه من أكبر المعلمين الذين أثروا في مسيرته العلمية والفكرية. وما ذاك إلا لأنّه كان يتخوّلهم بالموعظة عند المناسبة، ويمحضهم النصح الصادق حين لا يتوقعونه، ويحدثهم أحاديث الأخ الودود والصديق الصدوق بين الفينة والأخرى. يخرج بهم عن صلب الموضوع الذي هو بصدد الحديث فيه ولكنّ (خرجاته) تلك كانت هي الأَبقى أثراً والأطول عمراً، والأعظم فائدة، والبذرة التي آتت أكلها بنفس الطنطاوي وقلبه.

ولهذا نجد الكاتب يحرص على هذا المنهج منذ أن كان كاتباً ناشئاً، حتى وهو يكتب في موضوعات قد يكون ظاهرها بعيداً عن غاياته الإصلاحية

---

(١) ينظر السابق: ٤٦/٣.

(٢) السابق: ٢٤٨/٦–٢٤٩.

(٣) ينظر السابق: ٦٣/١، ٦٨–٧٠، ٨٩، و٣٠٩/٨.

والتعليمية. فقد كان – مثلاً – يكتب في صحيفة (ألف باء) للأستاذ يوسف العيسى مقالاتٍ دورية عن أفلام (السينما) ومع ذلك كان يحرص على الإفادة من طاقات الاستطراد في الخروج متى ما سنحت الفرصة أو سمحت المناسبة لتذكير القارئ ومناصحته ووعظه. يقول:

«كنتُ أكتبُ عن أفلام السينما فصولاً قصاراً، هي وسط بين تلخيص القصة وبين نقد التمثيل، ولايزال عندي كثير من هذه الفصول التي كتبتها من أكثر من نصف قرن، فيها قصص ومشاهد من الحياة، وغرائب من وقائعها، ومثالٌ من موضوعات الأفلام في تلك الأيام، ولا تخلو من تعليق فيه عبرة، ومن نصيحة أو موعظة، وأقوى المواعظ أثراً ماجاء عَرَضاً من حيث لا يتوقع السامع، لذلك كانت كلمة وعظ من مدرّس فيزياء أبلغ (أحياناً) من محاضرة من مدرِّس الفقه وقد شاهدت في المحكمة أن الطعنة التي يتوقعها الإنسان، لا تبلغ معه ما تبلغه واحدة مثلها من الغافل عنها...»[١].

ولقد كانت هذه سيرته في تدريسه ومحاضراته وأحاديثه وخطبه، وهي طريقته في التأليف والكتابة لانستطيع أن نستثني من ذلك إلا كتابه: (تعريف عام بدين الإسلام)[٢]. وقد علل لذلك بعض الدارسين بقوله: «وربما كان السبب في ذلك أن كتابه: (تعريف عام بدين الإسلام) قد وضح فيه المنهج، وتحددت له فيه الغاية...»[٣] وأحسب أن السبب يعود إلى أن الكتاب قائم على رغبة تراود الطنطاوي منذ مُدّة طويلة وهي تقديم الإسلام بأيسر السُّبل وأقربها وأوجزها. وكان هاجس المؤلف الوحيد وهو بصدد تأليف الكتاب تساؤل افتتح به كتابه وهو: هل يمكن أن نقدِّم الإسلام إلى رجل أجنبي خلال ساعة واحدة فقط؟!![٤].

---

(١) السابق: ٢/ ٣٠-٣١.

(٢) أما كتابه: (أبو بكر الصديق) فليس تأليفاً بالمعنى الدقيق، وإنما هو جمع لما تناثر من أخبار الصديق –رضي الله عنه– ولذلك لم تشر إليه الدراسة.

(٣) د. عبدالحميد حامد شعبان: من مدرسة البيان العربي... الأديب السوري علي الطنطاوي: ١٠١ (مقالة – مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة).

(٤) ينظر: علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام: ٣٠.

فالكتاب إذاً ليس خروجاً عن المنهج الطنطاوي في الكتابة والتأليف بقدر ما هو صورة للحاجة التي دفعتْ إلى تأليفه والغاية المتوخاة منه. لذلك صدّره الطنطاوي بعبارة رافقت العنوان العام للكتاب وهي:

«**هذا الكتاب: لم يؤلف للعلماء والفقهاء. ولكن لمن لم يدرس علوم الدين من المسلمين، ولمن يريد أن يعرف ما هو الإسلام من غير المسلمين**».

وقبل أن يشرع الباحث في الحديث عن أقسام الاستطراد ووجوهه في (ذكريات علي الطنطاوي) يجدر به أن يؤكد أنه يستخدم مصطلح (الاستطراد) بمعناه الذي ذكره أبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين)[١]. ويتأكد وجوب الإشارة إلى ذلك في ظل وجود شيء من الاضطراب في استخدام المصطلح، وبخاصة عند بعض نقاد الرواية، إذ ظهر للباحث أن بعضهم يستخدمه للدلالة على إطالة الوصف، والاستكثار من الشرح والتحليل، والاهتمام بالدقائق والاعتناء بالتفصيلات[٢].

وكُلّ هذه الأمور تختلف عن الاستطراد بمعناه البلاغي الدّقيق. فالاستطراد خروج عن الموضوع الأساسي إلى موضوع آخر، وما تقدم من إطالة الوصف أو الاستكثار من الشرح والتحليل أو الاهتمام بالدقائق، والاعتناء بالتفصيلات يسير ضمن الموضوع نفسه ولا يخرج عنه؛ بل يراه الباحث (أحياناً) زيادة في (الإيهام بالواقع) أو تأكيد على (رسم) ملامح البيئة بحاراتها وأزقتها أو فيافيها وقفارها أو صخبها وأنوارها. فإطلاق الاستطراد على مثل ذلك توسّع غير مقبول في استخدام

---

(١) انظر التعريف في صدر هذا الفصل. ويشترط القزويني في الاستطراد عدم القصد إليه عند ابتداء الكلام؛ وأن يأتي عرضاً أثناء الكلام لحاجة. ويسمى ما جاء بخلاف ذلك أي: جاء مقصوداً إليه: (إيهام الاستطراد) ينظر الإيضاح: ٢٤/٤-٢٦ (مع البغية) وكلاهما عند الباحث بمنزلة واحدة.

(٢) ظهر لي ذلك خلال مقابلة مع الكاتب الروائي والناقد الدكتور عبدالبديع عبدالله إذ جعل الوصف الذي يملأ صفحات للحياة الخارجية كالشوارع والمحلات والأثاث جعله كله استطراداً (مقابلة معه عصر الأربعاء ١٤١٧/٢/٦هـ وقد أذن بالإفادة من حديثه ونشره) وكذلك الأمر عند د. طه وادي في مكالمة هاتفية في اليوم نفسه.

وعند غير نقاد الرواية أيضاً مثل د. فوزي العطوي في كتابه جبران خليل جبران: ٧٥ ود. جواهر بنت عبدالعزيز آل الشيخ: هل يتلاءم فن الاستطراد مع إيقاع العصر: ٩٥ (مقالة — المجلة العربية).

المصطلح قد يؤدي إلى تهميش دلالته الأساسية دون داعٍ أو مُبرِّرٍ مقبول؛ لاسيما أن البلاغة العربية قد جادت بمصطلحات دقيقة وفضفاضة؛ دقيقة في دلالاتها على ما أشبه الاستطراد وليس منه مثل: التوسع في الشرح أو الوصف أو التحليل، وفضفاضةً في استيعاب النماذج المختلفة مما يجمعها: طول النفس مثل: الاستقصاء[1]، والإسهاب[2]، والإطالة[3]، والإطناب[4]. وهناك مصطلحات أخرى أكثر دلالة على هذه الظاهرة (أعني: التوسع في الشرح أو الوصف أو التحليل) والحكم على قيمتها الفنية في آن، مثل: (التوسع)[5] عند الإجادة والإحسان و(التطويل)[6] عند القبح والفساد.

ثانياً: أقسام الاستطراد ووجوهه في (ذكريات الطنطاوي):

تتباين أقسام الاستطراد في الذكريات بحسب الجهة التي ينظر من خلالها البحث. ويمكن إجمال هذه الجهات في النقاط التالية:

١. من حيث الاتصال بالموضوع الرئيسي أو الأصلي.

٢. من حيث المساحة والحجم[7] التي يشغلها الاستطراد في النّص.

٣. من حيث التركيب وضدّه.

٤. من حيث العودة إلى الموضوع الأصلي أو عدمها.

٥. من حيث المهام التي يريد الكاتب منه أن يُؤديها في النص.

---

(١) ينظر د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١/١٩٤ ود. إنعام فوّال عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة: ١٣٧.

(٢) ينظر د. أحمد مطلوب: المرجع السابق: ١/٢٠٢، د. إنعام فوّال عكاوي: السابق: ١٤٥.

(٣) ينظر: د. أحمد مطلوب: السابق: ١/٢٢١، ود. إنعام عكاوي: السابق: ١٥٧.

(٤) ينظر: د. أحمد مطلوب: السابق: ١/٢٢٤، ود. إنعام عكاوي: السابق: ١٥٩.

(٥) ينظر: د. أحمد مطلوب: السابق: ٢/١٧٣، ود. إنعام عكاوي: السابق: ٤٥١.

(٦) ينظر: د. أحمد مطلوب: السابق: ٢/٣٩١، ود. إنعام عكاوي: السابق: ٣٧٩.

(٧) الحَجْمُ: من كل شيء: جرمُه أو مقدار جرمه. وهو مفرد جمعه: حُجوم. ينظر: المعجم الوجيز: ١٣٧، وجبران مسعود: الرائد: ١/٥٥٣.

أولاً: من حيث الاتصال بالموضوع الأصلي:

ينقسم الاستطراد من هذه الجهة إلى قسمين:

أ) استطراد قريب. ب) استطراد بعيد.

أ) **وأقصد بالقريب:** أن يكون الاستطراد متصلاً بالموضوع الأصلي اتصالاً وثيقاً؛ بأن تقود إليه مناسبة قويّة، أو رغبة في شرح فكرة، أو توضيح مبهم، أو اتقاء فهم خاطئ، أو التعليق على موقف صدر منه... إلخ. وبعبارة أخرى: إن الاستطراد القريب هو ما كان باعثه الموضوع نفسه وليس شيئاً آخر مفروضاً على الذكريات.

من ذلك الاستطراد إلى ذكر اقتراح قديم بشأن تهذيب كتاب ابن عربي (الفتوحات المكية) ونشره تحت عنوان (تهذيب الفتوحات المكيّة) فيفاد مما فيه من العلم ويُسلم مما فيه من الشرّ. فقد كان هذا الاستطراد عقب ذكره تكليف الأمير عبدالقادر الجزائري – وكان ممن يقول بوحدة الوجود – لجدّه الشيخ محمد الطنطاوي وتلميذه الشيخ محمد الطيب بنسخ كتاب (الفتوحات المكية) عن نسخة كاملة بخط المؤلف في (قونية) تمهيداً لنشرها وإذاعتها بين الناس، وبرغم أن الطنطاوي عمد إلى فصل الاستطراد عن صلب الموضوع بذكر اقتراحه تهذيب الفتوحات المكية تحت عنوان بارز هو (عودةٌ إلى اقتراح قديم) فإنّه يظل استطراداً قريباً لأنّه نابع من الموضوع نفسه[1].

وقد يكون قريباً جداً من الموضوع الأصلي إلى درجةٍ ربما لا يفطن معها القارئ إلى وجوده. مثل خروجه من وصف الأشجار المصطفّة على جانبي الطريق إلى (سقبا) عند مرور السيارة أثناءَها مسرعةً إلى الحديث عن الحركة والسكون، يقول الطنطاوي:

«أما متعته [أي: الطريق] فلأنّه يضطجع على بساط ممدود على هذه الأرض المباركة، على جانبيه الأشجار صفوفاً وراء صفوف لا يدرك البصر آخرها كأنها

---

(١) ينظر الذكريات: ١٣٨/١–١٣٩.

الجند قامت تُحيِّي القادمين، تُظلّل حواشيه فروعها المزدانة ببارع الزّهر أو يانع الثمر. وتمرّ بها في السيارة متقدماً فتبصرها تمرّ بك [و] هي راجعةٌ كالراكب في القطار يرى المزارع والقرى تمشي ويرى نفسه قاعداً، وكالواقف في المصعد يبصر البيوت هي التي تنزل لا يشعر أنّه هو الذي يصعد.

والحركة والسكون من الأسرار التي نظن أننا كشفناها وما كشفناها، ولو لم يكن في الفضاء إلا نقطتان تتحركان فكيف تعرف أيّ النقطتين هي الثابتة وأيتها المتحركة؟ كيف؟ إنك لا تميز فيهما الحركة من السكون إلا إن كان أمامك نقطة ثالثة ثابتة، تقيسهما بها، وتنبهما إليها، فالحركة والسكون أمران نسبيان لانعرف (ماهيتهما) ولاماهية المكان المطلق ولا الزمان. ولما بلغت سقبا تركتُ السيارة ومشيتُ...»[1].

فهذا الاستطراد قريب جدًّا من الموضوع حتى إن القارئ قد لا يشعر بخروجه عنه. ثم إن الكاتب ما لبث أن عاد إلى الموضوع الأساسي فقال: (ولمّا بلغت سقبا...) كما هو واضح في المثال السابق.

ب) أما الاستطراد البعيد: فهو ما كان غير موصولٍ بسبب قويّ إلى الموضوع الأصلي. أو هو ما فرضه شيء آخر غير النص، كرسالة من قارئ، أو مناسبة زمانية، أو حادثةٍ ما تقتضي من الكاتب صرف الحديث إلى وجهة أخرى على سبيل الاستطراد، مثل خروجه عن حديثه عن رحلة الحجاز عام (١٣٥٣هـ) إلى الحديث عن (شهر رمضان) وكيف صامه أوّل مرّة عام (١٣٣٢هـ) وله من العمر نحو خمس سنين، وعرض خلاله صوراً مختلفة عن الحياة خلال هذا الشهر العظيم في عدد من البلدان التي زارها أو استقر فيها مُدّة من الزمن؛ وذلك بمناسبة دخول شهر رمضان عام ١٤٠٣هـ ومصادفته وقت كتابة ذكرياته. وقد استغرق منه الاستطراد حلقتين كاملتين ثم عاد بعدهما إلى الموضوع الأساسي فواصل الحديث عن رحلته الحجازية[2].

---

(١) السابق: ٢/٢٦٤.

(٢) هما الحلقتان (٧٦، ٧٧) ينظر الذكريات ٣/١٠٧-١٢٢.

كما استطرد إلى ذكر الوقفة بعرفات والحكمة منها في الحلقة الرابعة والثمانين كاملة[١] وعلل لهذا الاستطراد المفاجئ في الهامش بأنه «**كتب هذا الفصل يوم وقفة عرفة سنة ١٤٠٤هـ فكان موضوعه عنها**»[٢].

ومن الاستطراد البعيد وقوفه على (أشتات من الذكريات عن موسم الحج) في حلقة كاملة هي الحلقة العشرون بعد المائة (١٢٠)[٣] وقد دفعه إلى ذلك ما سمعه من الحُجَّاج عن سهولة الحج فأحب أن يتحدث عما كان يكابده الحاج قديماً؛ فالشيء قد ذكّر بضدّه. وقد اعتذر عن ذلك قائلاً:

> **«ما كنت أريد أن أقطع سلسلة ذكرياتي لأتكلّم عن الحج ولكن ما سمعته ذكّرني بضدِّه – وكذلك يكون تداعي الأفكار...»**[٤].

ومن الاستطراد البعيد ما قاد إليه حادثة (ما)، مثل: استطراد الكاتب إلى الكلام عن أحمد مظهر العظمة، وتعليقاته على بعض الصور القديمة التي تجمعه به وببعض الأصدقاء الذين رحل أكثرهم إلى الدّار الآخرة[٥]. وقد عددته ضمن الاستطراد البعيد لأن المناسبة التي جرّت إليه ليست نابعة من الموضوع الأصلي الذي كان الطنطاوي يخوض فيه، ولكن لمناسبة أخرى (خارج حدود النص) هي خبر وفاة أحمد مظهر العظمة – رحمه الله –.

ومنه الخروج إلى الحديث عن شكري الفيصل، وذكر شيءٍ من ملامح حياته الخاصة والعامة[٦]؛ إذ كان الدّافع إلى الاستطراد خبرًا قرأه في جريدة (عكاظ) نعت فيه الجريدة (شكري الفيصل) إلى كُلّ محبيه.

ومن الاستطراد البعيد أيضاً ما كان ردّاً على رسالة أو تساؤل من أحد القرّاء:

---

(١) ينظر السابق: ٣/١٧٩–١٩٠.

(٢) السابق: ٣/١٧٩.

(٣) ينظر السابق: ٤/٢٣٩–٢٤٧.

(٤) السابق: ٤/٢٣٩.

(٥) ينظر السابق: ٢/٢٥٣–٢٦١.

(٦) ينظر السابق: ٦/١١٩–١٢٢.

فقد اضطرّته رسالة تقول ما معناه: إن الطنطاوي ينسب إلى نفسه وهو في السن التي يدخل فيها الشباب الجامعة من القدرة على الكتابة والتأليف وذيوع الاسم في الناس، والتأثير في الشباب ما لا يمكن أن يكون... إلخ اضطرّته هذه الرّسالة إلى الوقوف طويلاً ليبين أن له عيوباً كثيرة ولكن الكذب ليس منها؛ لأنّه لا يكذب إلا الجبان. وهو متهم - في صدر شبابه - بالجُرأة والإقدام، وأنّه إذا هاجم لم يبال بالعواقب ومن كانت له هذه النقائص - كما يقول الكاتب - لا يمكن أن يجمع معها نقيصة الكذب...

وهكذا يَنْدفع الطنطاوي في استطراد طويل ليذكر بعض الأعمال التي قام بها، والأدوار السياسية والاجتماعية التي لعبها في تلك السن المبكرة، ويورد شهادة حظي - بها خِلال تلك الفترة - من الأديب الكبير الأستاذ أحمد الزيات فيها ثناء عظيم عليه، وإعجاب كبير به وبأدبه... إلى غير ذلك[1]. وقد دفع إليه - كما أسلفنا أسلفنا - رسالة من خارج حدود النص.

وكانت قد استوقفته قبل هذه الرسالة رسالةٌ أخرى يعتب عليه صاحبها لظهوره في بعض صوره في شبابه بلباس الكفار، (يقصد بلباس الكفار: البنطال والجاكيت) ويعجب من نضارته وبهائه وجمال هيئته وحسن منظره. وقد قادته هذه الرسالة لوقفة استطرادية تعطل فيها السرد بعض الشيء فقد بَيّن حكم الشرع في اللباس بعامة، وارتداء (البنطال والجاكيت) بخاصة، موضِّحًا أن الإسلام ترك لأتباعه الحرية في أن يلبسوا ما يشاءون ولم يقيدهم بزيّ خاص لا يجوز غيره؛ شريطة ألا يكشف عورة أو يشفّ عنها أو يصور من ضيقه حجمها، ولا يكون خاصاً بغير المسلمين لا يلبسه غيرهم، ولا يكون ثوب شهرة يلفت إلى لابسه الأنظار أو يسبب له الاحتقار ولا يكون ثوب حرير يلبسه الرجل... إلخ ما ذكره في الاستطراد الذي أجاب فيه عن تساؤل القارئ[2].

ومن هذا النوع تعليقه على مقالة طويلة لـ (غسان الإمام) نُشرت في مجلة

---

(١) ينظر السابق: ٢/٥٤-٥٨.

(٢) ينظر السابق: ٢/٥١-٥٣.

(الوطن العربي) بعنوان: (السلفيون خطفوا من الحركات السياسية شباب الجيل) وتحت العنوان الرئيس تساؤل كبير يقول: (لماذا يصبح التلفزيون العربي وقفاً على الشيخين الشعراوي والطنطاوي والسلفيين؟!)[١].

وكذلك خروجه إلى الردّ على رسالة (مصري مقيم بالمملكة) وصف فيها الطنطاوي بالتطرف والعداوة لمصر وحب الانفصال وكره الوحدة[٢]، ومناقشته لمقالة قيمة كتبها أحمد أبو الفتح بجريدة الشرق الأوسط[٣]، وعودته إلى الحديث عن (دمشق) بعد أن قرأ مقالة كتبها أو أملاها الشاعر عبدالله بلخير[٤].

ثانياً: من حيث الحجم أو المساحة:

أما من حيث الحجم والمساحة التي يشغلها الاستطراد داخل النص فيمكن أن يقسمه الباحث إلى قسمين عامين:

أ) استطراد قصير. ب) استطراد طويل.

أ) **فالقصير** يكون في سطر أو سطرين أو أسطر معدودة، مثل: خروجه من ذكر مسجد (العمري)[٥] الذي كان كنيسة فصار مسجداً إلى ذكر بيت لشوقي وشرح لمعناه، ولابأس في إيراده هنا ليقف القارئ عليه:

«... فإذا بلغتَ أسفل ساحة البرج وسرتَ إلى اليسار وجدتَ المسجد الكبير المسمى بالمسجد العمري، الذي كان كنيسة فصار مسجداً.

كنيسة صارتْ إلى مسجدٍ هديّة السيد للسيّد

يعني شوقي بالسيد الأول: المسيح، وبالسيد الثاني: سيد ولد آدم محمد عليهما من الله الصلاة والسلام. وأمام المسجد شارع يمتد إلى البحر...»[٦].

---

(١) ينظر السابق: ٦/٤٧-٥١.

(٢) ينظر السابق: ٦/٥١-٥٥.

(٣) ينظر السابق: ٨/١٥-٢٣.

(٤) ينظر السابق: ٧/٢٤٩-٢٥٨ للوقوف على نموذج آخر ينظر السابق: ١/١٩٩ وما بعدها.

(٥) مسجد كبير أسفل ساحة البرج في بيروت. ينظر السابق: جـ٤/٥٤.

(٦) السابق: ٤/٥٤-٥٥.

ومن الاستطراد القصير أيضاً تعليقٌ لغوي وضَّح فيه جواز إطلاق لفظ الجمع على الاثنين. وقد جاء ذلك الاستطراد في صورة توثيق لغويّ عقب استخدامه لفظ الجمع (الكليات) وإطلاقه على كليتي: الشريعة واللغة العربية، يقول الطنطاوي:

«ولكنّي لما جئتُ الكليات، وهما كليتان، كلية الشريعة وكلية اللغة العربية، والكليات جمع وإطلاق لفظ الجمع على الاثنين مذهب صحيح، فقد قال تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أقول: لما جئت الكليات وجدتُ...»[1].

فالاستطرادان السابقان لم يستغرقا أكثر من ثلاثة أسطر ثم عاد الكاتب بعدهما إلى الموضوع الأصلي.

ولكن الاستطراد القصير قد يمتد إلى أكثر من ذلك فيكون صفحة كاملة، أو صفحة وبعض الصفحة أو صفحتين كاملتين أو أكثر من ذلك بقليل بشرط ألاّ يزيد على صُلْب الموضوع أو يطغى عليه في الحلقة الواحدة أو الفصل – كما يحب الطنطاوي أن يسميه أحياناً – ومن ذلك استطراده عقب ذكر جبال (شروري) إلى ذكر جبال (حنين / الشرائع) وتعريفه بها، وقد أخذ منه ذلك نحو صفحةَ كاملة[2].

ب) **أما الاستطراد الطويل** فقد يكون في حلقة كاملة، أو حلقة وبعض حلقة، أو في حلقتين كاملتين أو أكثر. فمثال ما كان حلقة كاملة: مناقشته – استطراداً – لقضية مهمة يتهيب الحديث فيها كثير من المفكرين والساسة ورجال العلم والمعرفة – وبخاصة في البلدان التي تتعدد فيها الطوائف الدينية – وهي علاقة العربي المسلم بالعربي غير المسلم.

وقد فتح عليه باب الحديث في الموضوع صدور كتاب (الدولة والقومية العربية والدين والوحدة) لمؤلفه حنا مالك. وقد تزامن صدوره مع وقت تدوين الطنطاوي

---

(١) السابق: ٨/ ٢١٠.

(٢) ينظر السابق: ٩١–٩٢.

لبعض ذكرياته فأفرد للحديث عنه حلقة كاملة ليكشف نوايا الكاتب ويبين حقيقته، وما يدعو إليه، وليقدم للقارئ حقيقة تصوره، ورأيه الواضح والدّقيق لهذه العلاقة، وقد بلغ الاستطراد نحو عشر صفحات[1].

وكذلك استطرد في حلقة أخرى كاملة ليوضح ما يقصده بتغيير التلبية في الحج حتى لا يفهم عنه أنه يدعو إلى بدعة أو يروج لمنكر. وقد استغرق منه هذا الاستطراد التوضيحي نحواً من إحدى عشرة صفحة[2].

أما ما كان على حلقة وبعض حلقة فمثل تعريفه (بهضبة الجولان) ووصفه الجغرافي لها عندما ذكر مدينة (القنيطرة) وهي عاصمة (الجولان). وقد استغرق منه الاستطراد بعض الحلقة الثامنة والستين والحلقة التاسعة والستين كاملة[3].

وقد يكون الاستطراد على حلقتين كاملتين يعود بعدهما الكاتب إلى الموضوع الأصلي، مثل ما سبق ذكره من الاستطراد إلى ذكر رمضان ووصف حيوات الناس فيه فقد استغرق منه ذلك حلقتين كاملتين هما: الحلقة السادسة والسبعون (٧٦) والحلقة السابعة والسبعون (٧٧) في نحو خمس عشرة صفحة كاملة[4]. ومن ذلك أنّه قطع الحديث عن رحلته إلى أوروبّا ومشاهداته فيها لاستطراد طويل على حلقتين كاملتين عن (طريق الحج) و(الخط الحديدي الحجازي) في إحدى وعشرين صفحة كاملة[5].

وقد يكون الاستطراد أكثر من حلقتين كاملتين. فقد جرّه الحديث عن طريقة تدريسه لمادّة (الثقافة الإسلامية) في الكلية الشرعية ببيروت إلى تعريف كلمة الثقافة، وبيان توضيحي لطبيعة المعاجم العربية التي لا تزوّد القارئ بتطور الكلمة الدلالي وإنما تعرضها مبتورة عن سياقها، ثم انتقاله إلى تصنيف العلوم،

---

(١) ينظر السابق: ٨/٥-١٤ وهي الحلقة رقم (٢١٠).

(٢) ينظر السابق: ٨/١٦٥-١٧٦.

(٣) ينظر السابق: ٣/٤١-٥١.

(٤) ينظر السابق: ٣/١٠٧-١٢٢.

(٥) ينظر السابق: ٧/٣٠١-٣٢١.

ومصادر الثقافة الإسلامية، ثم تحدث عن علم الفقه، والأحوال الشخصية في الإسلام ولم يعد خلالها إلى الموضوع الأصلي إلا عودة يسيرة لم يلبث بعدها أن خرج عنه وانحرف بالسرد. وقد استغرق منه الاستطراد بعض الحلقة رقم (١٨٦) والحلقتين رقمي (١٨٧) و(١٨٨) كاملتين[١].

وقد أسهم هذا الاستطراد المفاجئ في انحراف السرد بالذكريات إلى موضوع آخر هو: (كيف وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية)[٢] الذي انتدب إلى وضعه الطنطاوي، ورحلته إلى القاهرة لهذا الغرض أواخر عام (١٩٤٦م) وبقائه فيها إلى عام (١٩٤٨م)[٣] ولم يعد إلى الفترة الزمانية السابقة للاستطراد حتى فرغ من تدوين ذكرياته.

ثالثاً: من حيث التركيب وضدّه:

أما من حيث التركيب وضدّه فينقسم إلى قسمين أيضاً:

أ) بسيط. ب) مركب.

وإذا كان الاستطراد القصير في العادة بسيطاً؛ فإن الاستطرادات الطويلة غالباً ما تكون استطراداتٍ مركّبة. وأعني بالمركّبة أنها تكون معرضاً لاستطرادات أخرى وذلك لاتساعها وطولها مما يُهَيِّئ الفرصة لاستطرادات أخرى تتخللها أو تلحق بها.

فقد استطرد – مثلاً – إلى ذكر الشيخ محمد نصيف حين تحدث عن إقامته في مدينة جدّة عام (١٣٥٣هـ) ولكنّه لم يلبث أن استطرد إلى موضوع آخر هو لقاؤه وزير العدل (خشبه باشا) وذكر بعض أخباره، ثم عاد كَرّة أخرى إلى الشيخ نصيف ثم خرج إلى الحديث عن الشيخ محمد علي زينل والشيخ الجفالي مثنياً عليهما مطالباً بتكريمهما[٤].

---

(١) ينظر السابق: ٧/٩٣–١١٦.

(٢) ينظر السابق: ٧/١١٧–١٢٧.

(٣) ينظر السابق: ٧/١٢٩–١٤٩ وما بعد ذلك.

(٤) ينظر السابق: ٣/١٢٥–١٣٠.

وقد قاد الطنطاوي الاستطراد إلى ذكر بعض سَيِّئات الأطباء[١] إلى أن يستطرد في حلقة أخرى مماثلة يذكر فيها بعضاً من حسناتهم وما لهم عند الناس من الحقوق[٢]، ثم عَلِقَ بهذين الاستطرادين المجزوءين على حلقتين استطرادٌ ثالث في حلقة ثالثة كاملة عن الحج[٣]، ثم عاد بعد ذلك إلى صلب الموضوع. وعند تعرضنا للاستطراد البعيد ذكرنا أن الكاتب قد استطرد لرثاء شكري الفيصل حين قرأ نعيه في جريدة (عكاظ) ولكن هذا الاستطراد لم يكن خالصاً لرثاء شكري فسرعان ما خرج الطنطاوي للحديث عن ابنته – هو – الشهيدة (بنان) وقد لاحظ الكاتب ذلك فَعَنْوَنَ حلقته بـ (إن الشجى يبعث الشجى... لماذا أتحدث عن (بنان) وأنا أرثي شكري فيصل)[٤].

رابعاً: من حيث العودة إلى الموضوع الأصلي:

لاحظ الباحث أن الاستطراد في (ذكريات الطنطاوي) ينقسم من حيث العودة إلى الموضوع أو عدمها إلى قسمين:

أ) ما يعود إلى الموضوع الأساسي بعد أن تنتهي دواعي الاستطراد سواء كان الاستطراد قريباً أو بعيداً، قصيراً أو طويلاً، بسيطاً أو مركبًا. وهذا الغالب على الاستطراد في الذكريات، ويتفق سائر نقادنا وبلاغيينا القدماء على تسميته (استطراداً) وحينئذٍ يكون الاستطراد بمثابة الفرع أو الجدول الصغير لا يلبث أن يعود فيصب في مجرى النهر المتّجه إلى البحر. ويجد الباحث نفسه في حِلّ من تكلف التمثيل له؛ لأن أغلب ما أشارت الدراسة إليه من الاستطراد – فيما سلف – إن لم يكن جميعه من هذا القبيل.

ب) أما النوع الثاني فهو ما لا يعود إلى الموضوع الرئيسي، وهو بذلك يؤدي إلى

---

(١) ينظر السابق: ٢١٩/٤–٢٢٨.

(٢) ينظر السابق: ٢٢٩/٤–٢٣٨.

(٣) ينظر السابق: ٢٣٩/٤–٢٤٧.

(٤) ينظر السابق: ١١٩/٦–١٢٩. وأحيل القارئ الكريم إلى مزيد من الشواهد ليراجعها ويقف عليها بنفسه. ينظر السابق: ٢٦١/٤ وما بعدها، و٥١/٦ وما بعدها، و٢٦٩/٧ وما بعدها، و٣٠١/٨–٣٢١.

الانحراف بالسرد عن وجهته انحرافاً تامًّا. فلا يكون الاستطراد بذلك فرعاً يسيراً يخرج عن أصل الكلام وصلبه ثم يعود إليه، ولاشيئاً كالجدول سرعان ما يصب في النهر، بل يصبح – إذ ذاك – شيئاً كالصخرة الصماء في أُسّ الجبل يرتطم بها السيل الهادر فتصرفه عن وجهته إلى جهة أخرى يظل يسعى فيها حتى يضعف عزمه وتفتر همته. وهو قليل جدّاً في ذكرياته.

وهذا اللون لا يعترف به ابن رشيق القيرواني (استطراداً) إلاّ من باب التوسع والتجوز. ويرى أن المصطلح الأنسب له هو (الخروج). يقول في تعريفه للاستطراد: (أن يرى الشاعر أنّه في وصف شيء، وهو إنما يريد غيره، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك (استطراد)، وإن تَمادى فذلك (خروج) وأكثر الناس يسمي الجميع (استطراداً) والصواب ما بينته)[1]، ويوافقه صاحب الطراز في ذلك(٢). أما ابن معصوم المدني والسيوطي والحموي فيعدلون عن لفظة (الخروج) إلى لفظة أخرى يصطلحون عليها ويرونها الأنسب والأصلح وهي (التخلص)[3].

وغنيٌّ عن القول إن الدّراسة حين عرضت لهذا القسم ضمن الاستطراد فإنها وقفت بهذا ضمن (أكثر الناس) – على حد قول ابن رشيق – الذين يسمون الجميع استطراداً. ويمكن أن نقسم هذا الضرب إلى قسمين:

١. ما يعود إلى الجادّة التي كان يسير عليها الكلام ولكن بعد مرحلة طويلة جدّاً من الاستطراد؛ تصرف القارئ عن السياق ذهنيًّا ونفسيًّا ووجدانياً وزماناً ومكاناً، إذ استقل فيها الاستطراد استقلالاً تامًّا وصار صُلباً للموضوع في (الذكريات) تجري فيه أحداثها.

فقد قطع الحديث – مثلاً – عن القضاء والقضاة وعمله في المحكمة وإصلاحاته فيها عند الحلقة ذات الرقم (١٢٦)[4] واندفع وراء استطرادات طويلة

---

(١) العمدة: ٣٩/٢.

(٢) ينظر يحيى العلوي: ٤٠٤.

(٣) ينظر: د. أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ١٣٤/١، ود. انعام فوّال عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٨٩.

(٤) ينظر الذكريات: ٢٨٩/٤.

ومتلاحقة على مدى إحدى وخمسين حلقةً تقريباً ثم عاد إلى أخبار القضاء مَرّة أخرى في الحلقة ذات الرقم (١٧٧)[1] وما بعدها من الحلقات. والاستطراد هنا من قبيل (الخروج) عند ابن رشيق القيرواني والعلوي أو (التخلص) عند ابن معصوم المدني والسيوطي والحموي؛ لأنه لم يتحقق فيه ضابط من ضوابط الاستطراد عند هؤلاء البلاغيين وهو العودة إلى الموضوع.

وعلى أية حال فإنّه لا يخرج عن كونه استطراداً لأنّه خروج عن صلب الموضوع إلى موضوع آخر، وقطع لتسلسل الموضوع وترابط الأحداث، فهو – أي: الاستطراد – ينحرف بالسرد من دائرة إلى دائرة ثانية دار خلالها وأفاض في الدوران وتعرض لموضوعات هي – ولاشك – من صلب (الذكريات) مثل: صلته بالقلم، والحياة الأدبية في البلاد العربية قبل نصف قرن، ومشاركته في مؤتمر القدس، وتنقلاته بين البلاد العربية والإسلامية لشرح القضية الإسلامية في القدس، ووضع قانون الأحوال الشخصية، والوحدة مع مصر...، وغير ذلك من الأمور التي لا تقل أهمية عن أخباره في القضاء. وقد أخلص لها الكاتب واعتنى بها حتى إن القارئ ليتوهم أنّه قد صرف همته عن (القضاء وأخباره فيه) تماماً، وأنه قد استقل طريقاً جديداً يسير فيه. ولعل العجيب أن الكاتب كان مبيِّتاً نية العودة إلى الموضوع الأصلي منذ خرج عنه؛ فقد أشار في الحاشية إلى ذلك العزم قائلاً:

«تتمة الكلام عن المحكمة وعن حياتي في القضاء ستأتي – إن شاء الله – بعد عدّة حلقات جرّت إلى الإسراع بذكرها المناسبات»[2].

ووجه العجب أنه كان يفترض – حرصاً على التنظيم – أن يضم الكاتب أخبار القضاء بعضها إلى بعض أي يعتمد على الموضوعات أساساً في التصنيف حين شعر أن التسلسل سوف ينفرط عقده بين يديه، ثم يذكر ما يريد بعد ذلك؛ لاسيما أنه قد عزم على إخراجها في كتاب. ولكنّه منهجه الذي يسير عليه في الاستفادة من المناسبات واستثمارها لدى القارئ أو المستمع.

---

(١) ينظر السابق: ٦/٢٦٧.

(٢) السابق: ٤/٣٠٠.

٢. أمّا القسم الثاني فهو ما لا يعود إلى الموضوع الأصلي:

من ذلك أنّه ذكر أن بعض الأساتذة في معهد الحقوق وقت دراسته فيه، كانوا صنفين: ثم ذكر صنفاً واحداً منهم، ثم قذفه الاستطراد بعيداً ونسي أن يذكر القسم الثاني منهم[1].

وكذلك حين استطرد إلى الحديث عن الثقافة الإسلامية وتصنيفات العلوم وغيرهما جرّه الاستطراد إلى أن يذكر كيف تمّ وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية، ودوره في ذلك خلال فترة عمله قاضياً، وإقامته في مصر في الفترة من (١٩٤٦م) إلى (١٩٤٨م) لهذا الغرض. وقد قذفه الاستطراد بعيداً في الزمان والمكان عن الموضوع الأساسي عندما تفرّع به الاستطراد إلى جهة أخرى ظل السّرد مخلصاً لها حتى فرغ الكاتب من تدوين ذكرياته[2].

خامساً: من حيث الموضوعات التي يريد الكاتب أن في النص:

ويُضْطَرّ الباحث لضرورة المساحة إلى اختزال هذه المهام في العناصر التالية:

١. الاستطراد للتعليم:

وهذا النوع من الاستطراد عنده حسب ما ظهر عند استقرائي للنصوص، يأخذ أبعاداً متعددة منها: اللغوي، والعلمي، والشرعي، والتاريخي، والفلسفي...

وغير منكور أن تكثر الاستطرادات العلمية في ذكرياته فغزارة المادّة، والثقافة الهائلة التي يتميز بها الكاتب، ومشاركته في العلوم والفنون المختلفة وحرصه على إفادة القارئ وتعليمه، وعمله في التدريس مُدّة طويلة كُلّها مما يذكي النزعة إلى التعليم ويقويها.

وقد تعرض الكاتب خلال استطراداته العلمية لمسائل في غاية الدقة أحياناً، تحدث عنها حديثاً وافياً يَنُمُّ عن قدرة وإلمام واطلاع واسع. ومثل ذلك يمكن أن

---

(١) ينظر السابق: ٢/٦٤-٦٨.

(٢) ينظر السابق: ٧/٩٣ وما بعدها.

يعكس للقارئ ما تسميه الدراسة بـ (البُعد الفوقي) للشخصية وتعني به: الجانب الثقافي والعلمي والفكري لشخصية البطل/السارد/ الكاتب.

❖ ومن الاستطرادات التعليمية تعليقاته اللغوية التالية:

«انصرف الناس [من مطار فرانكفورت] وبقيتُ حيران لا أنصرف، و(حيران) ممنوعٌ من الصرف إذا كنتم لاتزالون تذكرون ما درستم من قواعد اللغة العربية. هنا وعند شدّة الضيق يأتي الفرج، جاء الفرج من البحرين والنسبة إليها عند العرب (بحراني) ولكنهم ولست أدري لماذا لا يحبون أن يدعى أحدهم بها. وباب النسب عند العرب أكثره سماعيّ، فإن نسبوا إلى (المدينة المنوّرة بنور الإسلام) قالوا: (مدني)، فإن وجدتم بين المحدِّثين من اسمه المديني فهي نسبة إلى مدينة المنصور، أي إلى بغداد أوّل ما بناها، فإن قالوا (المدائني) [1] **فالنسبة فيها إلى مدائن كسرى.**

وكان رجلاً عربياً كريماً... رآني غارقاً فأخذ بيدي...»[2].

ومثل الاستطراد لشرح معنى كلمة (الجفلى) الواردة في سياق الكلام والاستشهاد على ذلك ببيت طرفة بن العبد المشهور، يقول الطنطاوي:

«قالوا: إن له قصراً مقابل البلاط الملكي، على يمين الذّاهب إلى الأعظمية، أراه من بعيد وأنا أمشي في الطريق، ما اقتربت منه لأصفه. قالوا: إنّه لما زوّج ابنه، وأظنّ أن اسمه، إن صدقتني الذّاكرة، صباح؛ دعا (الجفلى) وهي الدّعوة العامّة، ألم تسمعوا قول طرفة:

نحن في المشتاة نَدعُو الجفلى … لا ترى الآدب فينا ينتقر

ومُدّت البُسط، ونصبت الموائد، فأكل عنده ربع أهل بغداد. كما سمعت لا كما رأيت...»[3].

---

(١) ليس كل من نُسب إلى مدينة النبي ﷺ قالوا فيه: مدني، ولا كل من قيل نسبته مديني هو منسوب إلى مدينة المنصور، فالنسبة إلى مدينة رسول الله ﷺ على مديني نسبة صحيحة، وقد عرف عدد من الرجال المشهورين بنسبة (المديني) لانتمائهم إلى مدينة الرسول ﷺ، ومنهم الإمام الزهري المديني، وسَلَمة بن دينار أبوحازم المديني المخزومي، وعبدالله بن شداد بن البهار المديني، وطلحة بن عبدالرحمن بن عبدالله بن قصي المديني، وسعيد بن نوفل المديني. ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م٧٢، ج١، ص٧٦.

(٢) السابق: ٧/٢١٢.

(٣) السابق: ٨/١٩٨، وينظر أيضاً: ٣/٩١-٩٢ (الهامش).

❖ ومن ذلك ما يتناول فيه دلالات بعض التراكيب، وينبّه من خلالها على الخطأ الذي يقع فيه كثير من الكتاب عند استخدامها مثل:

«فإن رحلتُ عن دمشق اخترت الطبقات العالية من العمارات الكبيرة أسكن فيها فأرى منها بعض ما كنتُ أرى من نافذتي في دمشق، منظر ولا كمنظر دمشق. والناس حتى بعض الكبار من الكتاب، يقولون هذا الرجل ولا كل الرجال، يظنون خطأً أنهم يمدحونه ويفضلونه على الرجال. وهم إنّما يذمونه، ويقولون إنه رجل ولكن لا يبلغ أن يكون مثل سائر الرجال»[1].

❖ ومن الاستطرادات التعليمية حديثه عن السرقات الشعرية[2]، والشعر الحديث[3]، وأول من نظم شعر التفعيلة[4]، وحديثه عن أساليب الكتاب ومزاياهم وعيوبهم[5].

❖ أما الاستطراد التعليمي الشرعي فمثل قوله:

«أقول – استطراداً آخر – هل تدرون ما خائنة الأعين التي ذكرها الله؟ وما الذي تخفيه الصدور؟

إن كل آيات القرآن عظيم، ولكن هذه الآية صورة من حياتنا، لو أننا تنبّهنا إليها. يكون الشاب المسلم في البلد الذي انحرف عن جادّة الإسلام، ففشا فيه السفور، وظهرت العورات، وعمّ الاختلاط في الجامعة باسم العلم، وفي الملعب بحجّة الرياضة، وفي المسرح بدعوى الفن، وفي المستشفى باسم الطب فتمّر به البنت الجميلة، فيغض بصره عنها، ويمسك بإرادته أجفانَه أن تنظر إليها، ولكن لحظة غفلة منه تجعل عينه تخونه فتقع عليها، فإذا هو ناظر إليها. هذه هي (خائنة الأعين). أما الذي تخفيه الصدور فهو الاقتراب منها والوصول إليها أعود إلى حديثي...»[6].

---

(١) السابق: ١٠٧/٤.

(٢) ينظر السابق: ٣٢٢/٨–٣٢٥.

(٣) ينظر السابق: ٣٣٢/٨–٣٣٥.

(٤) ينظر السابق: ٣١٥/٣–٣١٧، و١٢٧/٥، وللوقوف على نماذج أخرى يراجع: السابق: ٥٤/٤–٥٥ و١٩٩/٨.

(٥) ينظر السابق: ٢٥٠/٨–٢٥٢.

(٦) السابق: ١٣٠/٥–١٣١.

ومثل تفسير سورة العصر أثناء الحديث عن إقامته في مدينة الرياض وما شعر به من الوحدة، وما كربه من الهم لمفارقته أهله وولده[١]. ومنها مناقشته لقضية تلبس الجني بالآدمي ودخوله فيه، وهو أمر يرفضه الطنطاوي لأنه – كما يعتقد – لا يقوم عليه دليلٌ صريح من كتاب الله وسنة نبيه[٢]. ومنها الاستطراد لبيان حكم الإكثار من الحج ووجه الأفضلية فيه[٣]. وهي كثيرة يمنعنا طولها من إيرادها، وتكفي الإحالة إلى ما تقدم في ذلك.

❖ أما الاستطرادات العلمية الصرفة فمثل: إجابته سؤال بعض القرّاء عما مَرّ في (الذكريات) من وصف لبعض الأطعمة والعقاقير بأنه حار رطب أو بارد يابس، فقد توقف الطنطاوي أمام السؤال شارحاً هذه النظرية، ومبيناً كيف انتقلت عن اليونان إلى العرب المسلمين ومتعرضاً لقضية علمية دقيقة هي أن (ديمقريطس ٣٧٠ ق. م) عرف الذّرة قبل أن يكتشفها (بيكون) في القرن السادس عشر الميلادي، ولكن (أرسطو ٣٢٢ ق. م) الملقب بالمعلم الأول ردّ تلك النظرية الصائبة التي أصبحت حقيقة علمية قائمة فيما بعد بأوهام (نظرية الأخلاط والعناصر البسيطة والمركبة) فعطل الفكر البشري قروناً طويلة متلاحقة[٤]، ومثل الاستطراد إلى الحديث عن كروية الأرض ودورانها ووصفه لتصوره كيف يكون ذلك[٥].

❖ وقد يجنح الطنطاوي في بعض الاستطرادات التعليمية هذه إلى تقديم بعض الحقائق التاريخية الغائبة عن القارئ، أو غير المعروفة عندما تحين المناسبة في النص، مثل التعريف بمدينتي (القطائع) و(الفسطاط)[٦] وحديثه عن بعض القلاع في العراق وسوريّا[٧]، وما ساقه من المعلومات عن مدينتي (سرّ من رأى) و(بومبي) الإيطالية[٨].

---

(١) ينظر السابق: ٨/٢١٥–٢١٧.

(٢) ينظر السابق: ٨/٣٥٠–٣٥١ وينظر أيضاً: فتاوى علي الطنطاوي: ١٩–٢٢.

(٣) ينظر السابق: ٥/١٧١–١٧٢، وكذلك حديثه عن الأوقاف: ٤/٢٨٠.

(٤) ينظر السابق: ٧/٣٠١–٣٠٣.

(٥) ينظر السابق: ٨/٣٤٩–٣٥٠.

(٦) ينظر السابق: ٧/١٤٣ وما بعدها.

(٧) ينظر السابق: ٤/١٤٠ وما بعدها.

(٨) ينظر السابق: ٤/٢٥–٢٧.

غير أن بعض هذه الحقائق التاريخية لا تقف أهميتها على ما تقدمه إلى القارئ من معلومات قد تكون غائبة عنه، ولكنها أحياناً تكون وثائق تاريخية نادرةً. كالحديث عن الخط الحجازي؛ فقد ساق فيه حقائق تاريخية مجهولة تماماً إلا لنفر قليل جداً ممن عاصر إنشاء الخط الحجازي، أو اتصل به عاملاً أو مسؤولاً، مثل الأُستاذ نديم الصوّاف الذي يسوق عنه الطنطاوي في استطراده حقائق تكشف عن أسباب إنشاء الخط والأموال التي بذلتها الحكومة العثمانية، والمشاق التي تكبدتها في سبيل إتمامه مَعَ إحصائيات رقمية نادرة؛ لا يمكن أن يقع الباحث على مثلها بسهولة فضلاً عن القارئ العادي[1]. وكان الأستاذ نديم الصواف من أعلم الناس بالخط الحجازي، وتاريخه وما مرّ عليه من أطوار وما حيك لأجله من المؤامرات؛ فقد عمل فيه موظفاً من صغار الموظفين وصعد السلم درجة درجة حتى صار الرئيس الأعلى فيه[2].

وبعض الاستطرادات التاريخية تتركّز أهميتها فيما تحمله من تحليل أو توجيه أو تعليل أو تفسير أو نحو ذلك، مثل تعليل تسمية شجرة زيتونة هرمة بـ (ستي زيتونة) يقول الكاتب:

«أما هذه الزيتونة فقد كانت شجرة هرمة، أمامها قفص من حديد تربط به النساء الخرق، وتحتها قبر وعندها (شيخ) دجّال، قد جعل مرتزقه سدانة هذا الوثن.

أما قصتها فعجيبة حقّاً، هي أن قاسم الأحمد... لما ثار على إبراهيم باشا أيام حكمه للشام، قبض عليه بعد معارك طويلة، فشنقه مع خمسة من رفاقه تحت زيتونة كانت هناك، فقال الناس (الستة بالزيتونة) ثم نسوا القصة، فقدّسوا الشجرة وسمّوها (ستي زيتونة)»[3].

❖ ومما يدخل ضمن هذا القسم: الاستطرادات الفلسفية التي يبثها الكاتب خلال الكتاب، يودع فيها تجربةً أو فكرةً، ويكون الاستطراد حينئذٍ هو المخاض الذي يدفع بها إلى عالم الأحياء حين تنجح فتتفاعل مع سياقاتٍ فكرية أو فلسفية

---

(١) ينظر السابق: ٧/٣٠٣-٣٢١.

(٢) ينظر السابق: ٧/٣٠٨.

(٣) السابق: ١/٥٣.

أخرى، أو تموت محصورة في زاوية ضيقة؛ لأن هذه الأفكار الفلسفية تظل أفكاراً بسيطة، أو جزئية متناهيةً في الصغر لم تُنظم ضمن إطار فلسفي واضح المعالم؛ لذلك تبقى حياتها مرهونة بموقف القارئ منها:

«إن أجمل آثار الكاتب أو الشاعر هي التي لم يكتبها.

ومتى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار، بل متى كانت تسجل كل مشاهد الكون فضلاً عن مشاعر النفس؟ أتقدر أن تسجل ألوان الغروب حتى لا يفوت قارئ قصيدتك -أيها الشاعر- أو ناظر لوحتك -أيها الرسام- شيء منها؟! كم قال الشعراء، وكم كتب الكتّاب في (الحب) فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟ هذه الكلمة المؤلفة من حرفين اثنين: الحاء التي تعبّر عن الحنان، والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشفتين كأنّه متهيّئ لقبلة! هل تحيط كلمة (الحب) بأشكال الحب، الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحتري، والثالث يحب من البلاد مكة، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمس بالزيت لابالسمن... وقيس يحب ليلى، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب اللّه الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرتُ من أنواع الحب؟

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، وجمال الشيخ الوقور، وجمال المرأة الحسناء، هل هو (جمال) واحد؟ ولو جئت بمئة جميلة، لوجدت مئة جمال، كلٌّ له طعم، وكُلّ له لون، وكلّ من نوع وما عندنا لهذا كُلّه إلا كلمة واحدة، لذلك نعمد إلى الأوصاف فنقول: هذا جمال وديع، وهذا وحشي، وهذا شهواني، وهذا ما لست أدري. إن لغات الأرض تعجز عن التعبير عن مشاعر النفوس، فكيف نريد منها أن تعبّر عن عالم (ما وراء المادّة)، عن عالم الغيب؟...»[1].

ومن الأفكار الفلسفية التي تعرض لها في استطراداته: مسألة الشهرة، وقد حاول في هذه الاستطرادات أن يقنع القارئ بأنه انتهى بعد تجارب طويلة إلى حقيقة مهمة في هذا الجانب، هي أن الشهرة ليست بنعمة كما يظن الناس كما أن خمول الذكر ليس نقمة يفقد معها الإنسان إحساسه بقيمته وذاته، وأنها أيضاً ليست بدليل على العظمة فكثير من المشاهير لا يملكون الحق في أن ينسبوا إلى ما اشتهروا به.

(١) السابق: ١/ ١١٠.

ونجد هذه الأفكار الفلسفية تأتي غالباً في ظل سياقات ذاتيه خالصة فتزيد الصراع تعقيداً، والمواقف عمقاً أو تحليلاً، وتتجسد في أثنائها آراء الكاتب وأفكاره:

– «أمضيت... أيام الحج [عام١٣٨٣هـ] في الرياض كما يمضي السجين أيام سجنه. لم أكن أنظر إلى أحد، لأنني لا أعرف أحداً، كنتُ أجول في الطرق وحدي لا يلتفت أحدٌ إلي، فأحسّ كأنني صرت كالشجرة المغروسة على جانب الطريق، أو العمود الذي يحمل المصباح الذي يضوّئ في الليل الطريق، يراه الناس كُلّهم ولكن لا يهتم به أحد منهم. بل إن الشجرة والعمود كانت أثبت مني وجوداً، وكان الناس أكثر بهما اهتماماً، لأنها إن قُطِعتْ الشجرة، أو انكسر العمود أحسوا بفقدهما، وسألوا عنهما، وأنا لم يكن يشعر أحدٌ إن حضرتُ أو غبت، أو سرتُ في الطريق مع السائرين، أو خلا مني الطريق. إني لأذكر هذا الآن بعدما استمررت عشرين سنة بلا انقطاع أحدّث الناس من الرائي ومن الإذاعة، يسمعونني كل يوم، ويرونني كل أسبوع، أفتحسبون هذا الذي صرت إليه نعمة؟ لا والله، حلفتُ لكم لتصدّقوا، ليست الشهرة نعمة يستراح إليها ويحرص عليها، ولا ما كنتُ فيه في الرياض نعمة، أرضى برجوعها، لقد فقدتُ هنالك شخصيتي، وكدتُ أنسى وجودي، وأضعت هنا الآن حريتي. لقد تقلبت بي في المملكة الأمور، وتحولت الأحوال، حتى كاد يختلط علي حلوها بمرّها، وأبيضها بأسودها، كنت في الرياض كمن يلبس (طاقية) الإخفاء التي ورد ذكرها في قصص ألف ليلة وليلة، فأنا أمشي بين الناس ولا يبصرني أحدٌ من الناس؛ كأنني استحلتُ إلى خيال. وأصير اليوم كأني أحمل على رأسي مصباحاً يجلب إليّ أنظار الناس، فلا أستطيع أن أدخل حديقة أو أقف على بياع، لأن النّاس يشيرون إليّ، أما من منزلة بين المنزلتين؟! هل خلت الدنيا من التوسط والاعتدال؟ أكتب علي أن أعيش في الظلمة حتى لا أكاد أبصر طريقي؟ أو أحدّق بعينيّ في عين الشمس فلا أرى شيئاً؟ إني لأعجب ممن يسعى إلى الشهرة ويراها شيئاً جميلاً. ما الشهرة؟ هي أن تتفتح عليك الأعين كُلّها، ويراقبك الناس جميعاً فتفقد بذلك حريتك!!»[1].

– «سألني الإخوان عن (عنبر) هذا، الذي سميتْ باسمه هذه المدرسة العظيمة

---

(١) السابق: ٨/٢٠٥.

[مدرسة مكتب عنبر] التي كانت وحدها فصلاً كاملاً من تاريخ الشام الحديث، ما (عنبر) هذا؟ فضحكتُ، لأن عنبر لم يكن عبقريًّا ولاعظيماً بل هو اسم الرجل الذي بنى هذه الدّار. وهكذا ترون أن الشهرة وبقاء الاسم ليسا دليل عظمة الرجال.

في (جُدّة) حيّ من أفخم أحيائها الجديدة اسمه (حي عنيكش) فاسألوا من (عنيكش) الذي كرمناه فسمينا باسمه حيًّا كاملاً، والناس إن كرّموا عظيماً سمّوا به شارعاً واحداً؟ وباب (إبراهيم)، من أشهر أبواب الحرم ما سُميّ باسم سيدنا إبراهيم الخليل، كما ظن من أطلق اسمه على الشارع، بل باسم خياطٍ كانتْ دُكانه عند هذا الباب. وأميركا ما سميت باسم كريستوف كولومبس الذي اكتشفها بل باسم بحار اسمه (اميركو فيسبوسيو) كان من أوائل من أبحر إليها بعد اكتشافها بخمس عشرة سنة!.

أتسمونها مصادفات؟ أم هي حظوظ؟ أم دليل على أن الشهرة ليست مقياس عظمة الرجال؟»[1].

وإذا كان الكاتب قد حرص فيما ساقته الدراسة من النماذج للاستطرادات الفلسفية على أن يلبسها ثوباً برّاقاً ولامعاً يجذب القارئ إليها بعرضها في هيئة تساؤلات تحاصر القارئ وتحمله على التفكير بها وإدراك ما يدور حوله من حقائق قد لا يكون ألقى لها بالاً، أو عن طريق ما يسوقه من التجارب والشواهد الواقعية، أو ما يركن إليه أحياناً من الصور التي تعتمد على التشبيه القريب، فإنه أيضاً يميل إلى الإفادة من طاقات السخرية، والفكاهة في إيصال هذه الفكرة الجزئية المهمة التي يركز الطنطاوي عليها مراراً في (ذكرياته) إلى القارئ. وأعتقد أنه إذا كان القارئ قد وقف موقف المتشكك أو من يهز رأسه مجاراة أو ممالأة فإنه لا يملك الآن إلا القبول، يقول الكاتب:

«... لطالما كنتُ أخطب في الحشد الكبير، أو أتكلم في الإذاعة أو الرائي (أي التلفزيون) — وأحاديثي فيها كلها ارتجال، ليس أمامي ورقة مكتوبة أقرأ فيها، فأستطرد وأخرج عن الخط، فإذا انتهى الاستطراد، وقفت كما وقف حمار الشيخ

---

(١) السابق: ١/ ١١١.

في العقبة، فلا أذكر من أين خرجت ولا إلى أين أعود. ولا تسألوني من هو هذا الشيخ، فإن المثل خلّد ذكر الحمار ونسي اسم الشيخ، ليعلمنا أن خلود الأسماء ليس الدّليل على عظمة أصحابها...»[1].

٢. الاستطراد للموعظة والمناصحة ومناقشة بعض الأفكار الدّعوية المهمة:

مثل الاستطراد إلى الحث على وجوب العمل للرحلة الأُخروية، وذلك عند الحديث عن رحلته إلى بعض البلدان الإسلامية[2]. ومثل الخروج من وصف بعض مشاهداته أثناء رحلاته الجوية إلى التنفير من الكبر والمتكبرين، وتحقيره لمن يستصغرون الناس ويبخسونهم أقدارهم وحقوقهم:

«في الرابعة تماماً... حطت الطائرة الفخمة (طائرة ك. ل. م. الهولندية) على أرض المطار... ولم أحس بها وهي تقوم، ولم أعلم بأنها طارت حتى نظرت من تحتي فرأيت بغداد والنهر الفيّاض يحيط بها، ويلمع كأنّه ثعبان ضخم، قد التف على فريسته. وابتعدنا حتى غابت بغداد عن عيوننا ولكن صورتها لاتزال في قلوبنا نحاذر عليها الغرق ونرجو لها السلامة. ولكن السلامة لم تتم وكانت الفاجعة بعد ذلك بيومين. سمعنا بها ونحن في السفارة العراقية في كراتشي، ومرّت بنا الطيارة إلى البصرة فلم تنزل بها، ورأيت الناس فيها صغاراً كالنمل تمشي في الشوارع، وكانوا إذا رفعوا رؤوسهم، رأوا طيارتنا صغيرة كأنها عصفور فوق سطوح المنازل.

وهذا هو مثل المتكبر على عباد اللّه والكبرياء للّه وحده، والكبرياء كانت سبب هلاك إبليس واستحقاقه لعنة اللّه. المتكبر يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً، فليخجل الذين يستكبرون من البشر، وأوّل أحدهم كما قال الأولون: (نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل في بطنه العذرة). يغرّه أنه استطاع أن يطاول الجبال طولاً، ويخرق بطنها قوّة واقتداراً، فإذا جاء الأجل واراه التراب لا يملك دفعاً ولا حراكاً.

أنا أعدّ هذه الكلمات وأمامي الجريدة فيها صورة (تشيرنينكو) الرئيس السوفياتي الذي ظن بإلحاده أنه يستطيع أن يحارب اللّه، وأن يمحو من الأرض دين

---

(١) السابق: ١/١٠-١١.

(٢) ينظر السابق: ٥/١٥٥-١٥٦.

اللّه، وأن يكره الناس على الكفر، فاسألوه الآن لو استطعتم سؤاله: ماذا وجد؟ اسألوه: ماذا أعدّ للقاء اللّه الذي لامهرب منه ولامهرب عنه؟ اسألوه: ماذا هيأ لنفسه ليجتاز الصراط فلا يسقط تحته؟ ما أغنى عنه ماله، لقد هلك عنه سلطانه، وانفضّ عنه جنده وأعوانه، ونزل التراب وحده، وسيقوم بين يدي ربّه للحساب وحده. فيا أيها الطغاة اعتبروا. فلقد كان هذا الرّجل أقوى منكم قوّة، وكان أضخم جيشاً، وكان أكثر مالاً، وكان أعز سلطاناً، فذهب ذلك كُله ولم يبق في يده منه شيء. اجعلوه عبرة لكم فالعاقل من يعتبر بغيره، والأحمق من يكون هو العبرة لغيره.

ومرّت بنا الطيارة فوق أرض فارس، فوق إيران...»[١].

وهذه الطريقة – كما سبق أن أشار الباحث – هي منهج الطنطاوي في الوعظ والتذكير. إذ يميل إلى توظيف المناسبات المختلفة واستثمارها لتوطيد علاقته بالقارئ، وتلمس حاجاته ومشكلاته وتوجيه انفعالاته لصالحه ومن ثمّ ينثر هذه الوعظيات في رفق ولين غير مبالٍ بكثرتها أو (مباشرتها) أحياناً.

وفي هذه الاتجاه نجده يميل إلى مناقشة بعض الأفكار المغرضة التي يروج لها بعض أعداء الدين خارج ديار الإسلام ومن داخلها، فيفصل الحديث فيها ويردها على أصحابها، ويبين حكمة المُشرِّع في سَنِّ قوانين الإسلام وأحكامه ونظمه. ومن أشهر هذه الأفكار المغرضة التي يفجّرها أعداء الإسلام بين أهله (مساواة المرأة بالرجل) ونظرة الإسلام الجائرة – كما يزعمون – إلى المرأة. فقد استطرد الطنطاوي إلى هذه القضية عند حديثه عن إسهامات ابنته (بنان) الدعوية مع زوجها عصام العطار مبيناً أن الإسلام للرجال والنساء على السواء، وأنّه سوى بينهم في الحقوق والواجبات، وفي الثواب والعقاب، كما يسوى قانون الموظفين بينهم جميعاً في الدرجة والعلاوة والإجازات والتقاعد والإحالة على المعاش. وتعرض في استطراده إلى ما أثير من اختلاف بين الرجل والمرأة في مسائل: الإرث والشهادة، وكون العصمة بيد الزوج لا الزوجة... وقد عرض إجابات مختصرة شافية وافية عنها[٢].

---

(١) السابق: ٥/١٨٣–١٨٤.

(٢) ينظر السابق: ٧/٢٢١–٢٢٤.

وفي بعض الاستطرادات الأخرى ينحو إلى المناصحة، كمناصحته للدعاة بأن يتحدوا على كلمة واحدة، ويدعوا مسببات الفرقة والخلاف فيما بينهم، وألاّ يتخذوا المنابر وسائل دعوة لأحزابٍ أو منظماتٍ أو مذاهب سياسية أو لجلب نفع إليهم خاصة أو دفع ضُرّ عنهم خاصة؛ لأن المنابر وسائل لبيان الحق وتبصرة المسلمين بعامة إلى ما يهمهم في أمر دينهم ودنياهم(١).

كما يوجّه الدعاة في استطراد آخر إلى أن يحرصوا على أن يعمّوا بدعواتهم الإصلاحية الشعوب، ويعملوا على تلقينهم العقيدة الصافية، لأنها الأبقى والأنفع والأدوم، أما قصر الدعوة على الرؤساء والملوك من غير المسلمين في البلاد الكافرة فيتحيفها المخاطر والفشل وهي وإن أثمرت فإن ثمرتها محدودة تنتهي بانتهاء النظام أو موت الملك أو تغييب الرئيس(٢).

وليست المناصحة التي يخرج إليها مقصورة على الجوانب الدينية أو الأخلاقية، ولكنها تتسع لتشمل أموراً أخرى عامّة مما لا يتحرج الطنطاوي بعاطفته الأبوية وتجربته الطويلة وعلاقته الحميمة بالقارئ ورغبته في النصح من الخروج إليها منبهاً أو داعياً أو محذِّراً، مثل:

«وجاء يوم السفر، وكان اليوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨م وجئت محطة الحجاز، هذه العمارة التي كانت (وأظنّها لاتزال) تحفةً في فن البناء، ومثلها وإن كانت دونها في جمالها، محطة العنبرية في المدينة، وقد سمعت أنهم يفكرون في هدمها. فإذا قبلتم مني، فدعوها فكأنكم إن هدمتموها قتلتم رجلاً في ذهنه تاريخ، وفي جعبته تحف، ومعه قطعة من بلادكم، فلا تبتروا قطعة عزيزة من جسد بلادكم. وكانت المحطة مائجة بأهلها كما يموج البحر بمياهه...»(٣).

ومن ذلك استطراده لمناصحة القائمين على تطوير المدن بالمملكة العربية السعودية بالمحافظة على تميزها الإسلامي وخصوصيتها التاريخية بالإبقاء على

---

(١) ينظر السابق: ٧/ ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) ينظر السابق: ٨/ ٨٦-٨٨.

(٣) السابق: ١/ ٢٤٤-٢٤٥.

الأسماء القديمة وبخاصة في مكة والمدينة. ودعوتهم لعمل مجسم ضخم لمكة المكرمة قبل خمسين سنة، ومتحفٍ صغيرٍ يكون في بهو أمانة العاصمة المقدسة تُعرض فيه المجسمات التاريخية حسب تسلسلها الزمني: لوحة تُعرض فيها جبال مكة وأوديتها قبل أن يرفع سيدنا إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، واللوحة الثانية للكعبة كما أقامها إبراهيم عليه السلام... إلخ هذه المقترحات التي يرى ضرورة إنجازها حتى لا تضيع معالم مكة القديمة وجبالها وسط الجسور والأنفاق وطرق السيارات[١].

ومن المناصحات ما يبتعث فيه دور الفقيه؛ فيصدر فيها فتاوى شرعية خالصة يقول مناصحاً القرّاء في المملكة بالاستفادة من خبرة بعض مهرة الصناع الشاميين:

«وجاء المملكة من قريب عاملٌ ممن تعلم هذه الصنعة اسمه (فلان العقاد) — نسيتُ اسمه الأول — وهو يعمل في الرياض ومعه لوحة صنعها باعها بألف ريال! فابحثوا عنه، واستقدموا زملاءه، واستفيدوا منهم فيما تقيمون من عمارات، تريدون لها الزخرف والجمال، ولكن ابتعدوا عن المساجد، فالمساجد ليست معارض للفن، ولكن محاريب عبادة، لذلك يكره فيها كل ما يشغل المصلي عن صلاته لاسيما إن كان في جدار القبلة، أمور الدين ياسادة مردّها إلى ما أوحى به اللّه وبلغه الرسول، لا إلى ما يراه المفكرون، ولا إلى أذواق أهل الفنون...»[٢].

٣. الاستطراد للتعريف بالشخصيات:

وذلك حين يذكر شخصية غير معروفة أو يتوهم أنها تلتبس بغيرها فإنه يستطرد إلى التعريف بها، وتقديمها إلى القارئ. مثل:

«كان يأتي [الناظر] بي وبرفيق لي هو عبدالمجيد مراد أخو شفيق وعبدالحميد وابن الشيخ أبي النصر مراد، الذي جرّ إلينا الكهرباء من داره وكانت له بسببها القصة التي رويتها لكم في غير هذه الذكريات.

(١) ينظر السابق: ٣/١٤٢–١٤٤.

(٢) السابق: ٢/١٢٧–١٢٨، وللوقوف على نماذج أخرى في هذا الجانب ينظر السابق: ٢/٧ و٤/١١٦.

كان يقعد على مقعد في قاعة المدرسة، ويوقفنا أمامه، وينصحنا فيتكلم...»[١].

وقد يُبيّن في بعض التعريفات متى التقى الشخصية أولَ مَرّة وشيئاً من صفاتها وسلوكها، كما فعل عندما جاء ذكر الشيخ بشير الإبراهيمي[٢]، وعبدالحميد الخطيب[٣] والشيخ محمد عمر توفيق[٤]. وهذا النوع من الاستطراد في العادة يكون استطراداً موجزاً. غير أن بعضها يطول حتى يبلغ حدّاً يمكن معه أن نسميه (ترجمة) بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ وإن ظلت تراجمه الاستطرادية هذه لاصقة بتجاربه وخبراته وعلاقاته مع الشخصيات التي يترجم لها.

أما أهمية هذه الاستطرادات فتبرز في (قيمتها التاريخية) فقد احتفظت لنا بتراجم نادرة لبعض أعلام القرن الهجري الماضي ممن أسهموا بجهود كبيرة في الحركة العلمية والثقافية في بلاد الشام وسوريا خاصة. كالشيخ أبي الخير الميداني[٥]، والشيخ شريف الخطيب[٦] والشيخ عيد السفرجلاني – رحمهم اللّه – وينعتُ الطنطاوي الأخير بقوله:

«كان جنديًّا مجهولاً في معركة الإيمان والكفر والعلم والجهل، لبث سبعين سنة يعلم الأولاد؛ فاجتمع في سجلاته اسم التلميذ وأبيه من قبله وجدّه من قبلهما ووالد جدّه»[٧].

وقد ترجم له الطنطاوي في مواضع متعددة من ذكرياته[١]، وكان يرى أن عمله هذا واجبٌ عليه وعلى كل مخلص من الكتاب والأدباء. يقول:

---

(١) السابق: ٨٣/١ وهناك نماذج أخرى مثل تعريفه بالشيخ سليم المسوتي ١٩٣/١ وفخري البارودي: ١٩٤/٣ ومرشد عابدين: ٢٧٧/٤ وأحمد القاسم: ٥٣/١ وسعيد الجزائري وأنور العش: ٩٦/٤ وما بعدها.

(٢) ينظر السابق: ٤١/٥–٤٢.

(٣) ينظر السابق: ٢٤٧/٦.

(٤) ينظر السابق: ٢٠٠/٨.

(٥) ينظر السابق: ١٩٤/١–١٩٧.

(٦) ينظر السابق: ٢٢١/٣–٢٣١.

(٧) السابق: ٢٥٧/٥.

«هذا الرجل [الشيخ عيد السفرجلاني] الذي نسيه أهل دمشق وقد كانوا يتلقون العلم عنه ويقبسون الضوء منه، فيهتدون به في طرق الحياة المظلمة. خبروني لماذا نؤلف الكتب، ونعد الدراسات نجعلها موضوعات الرسائل الجامعية والأطروحات عن رجال السياسة، ورجال الفن، ولانقضي ديون رجال التعليم علينا؟! هؤلاء هم الذين نَشَّؤُوا أولادنا، هم الذين وضعوا الأساس لبناء ثقافتنا، هم الذين يكون الصلاح منهم إن كانوا صالحين، فلماذا لانوليهم من العناية ما يستحقون؟! لماذا لا يكتب الشاميون عن الشيخ عيد السفرجلاني والشيخ كامل القصاب، والشيخ أبي الخير الطباع؟ لماذا لانكتب هنا عن محمد علي زينل، وعمن فتح المدرسة الصولتية، وعن الذين أقاموا في المملكة هذا الصرح العظيم،... فَعُدّوا أنتم من تعرفونه هنا من قدماء المدرسين، إنهم طالما هجروا نومهم ليصححوا دفاتر أولادكم، وشغلوا يومهم بتقويم أذهان أبنائكم، أفلا تقولون لهم شكراً؟»[٢].

وقد حرص فعلاً على أن يستكثر من الترجمة لمثل هؤلاء الأعلام الذين يخشى الكاتب أن يطوي ذكرهم النسيان كما طوى ذكر كثيرين كان لهم من الفضل والنُّهى ما يستحقون به أن يخلدوا في ذاكرة الزمان.

وممن حرص الطنطاوي على الترجمة لهم: أساتذته ومشايخه الذين تلقى عنهم العلم، ومنهم: عبدالرحمن سلام[٣]، والشيخ المبارك[٤]، والشيخ الداوودي[٥]، ومحمد البزم[٦]، وجودة الهاشمي[٧]، ومسلم عناية[٨]، وعبدالوهاب أبو السعود[٩]، وسليم

=

(١) ينظر السابق: ٦٣/١، ٦٨–٧٥، ٨٩، ٣٠٩/٨.

(٢) السابق: ١٧٤/٧–١٧٥.

(٣) ينظر السابق: ١١٦/١–١١٧.

(٤) ينظر السابق: ١١٨/١–١٢١.

(٥) ينظر السابق: ١٢٤/١ وما بعدها.

(٦) ينظر السابق: ١٢٥/١–١٢٦.

(٧) ينظر السابق: ١٢٨/١.

(٨) ينظر السابق: ١٢٨/١–١٣٠.

(٩) ينظر السابق: ١٥١/١–١٥٢.

الجندي[١]. وقد نصّ على أنه حين يترجم لهؤلاء فإنه لا يترجم لهم إلا وفاءً ومحبّة وقضاءً لدين أثقل كاهله:

«خبروني هل تحفظون من أخبار أساتذتكم مثل الذي أحفظ من أخبار أساتذتي هؤلاء الذين أحدثكم حديثهم؟ هل يبقى من ذكرياتهم في نفوسكم بعد ثلاثين سنة من ابتعادكم عنهم كالذي بقي في نفسي من ذكريات أساتذتي التي أكتب اليوم عنها بعد ستين سنة من تاريخها؟ وإن هي بقيتْ في نفوسكم وحدثتم بها، فهل تحملون لهم من الحب كالذي أحمل لأساتذتي؟ إني أحبهم، وإلا فلماذا أثني عليهم وأمدحهم؟ الشعراء كانوا يمدحون الملوك والأمراء وهم أحياء أملاً بالمكافأة والعطاء، فهل أطمع بعطية من ناس مضوا إلى رحمة ربهم؟ إني أفكر فيما صرت إليه، وما كنت في صغري فيه، فأرى الفضل للّه أولاً وأخيراً، ولكن السبب فيه هؤلاء المدرسون وأمثالهم.... كان لهم لقوّة شخصياتهم، ونبل صفاتهم، وطهر قلوبهم أعمق الأثر في فكري وفي عاطفتي، وفي سلوكي وفي تكويني، لم أحس به في حينه، ولكن عرفته بعد حين... فهل تستكثرون عليّ أن أنضح بالدمع قبور رجالٍ هم ملؤوا قلبي بالعاطفة التي ينبع منها الدمع؟ لقد بكيتهم يوم ماتوا بصوب قلبي، لا بماء عيني. فيارب ارحمهم، وارحم كُلّ الذين علموني، وارحم أبي لأنه كان أبي وكان معلمي واجزهم عني خير الجزاء»[٢].

وأحسب أن الطنطاوي باستطراداته هذه – على الأقل أمام نفسه – استطاع أن يؤدي شيئاً من الحق تجاه هؤلاء الذين كان لهم فضل يد وسابقة إحسان، ويخفف من إحساسه بالتقصير نحوهم، لاسيما أن الطنطاوي يرى أن أخبار رجال العصر أكثرها لم يُدوَّن ولا يزال في صدور أصدقائهم ومعارفهم[٣].

ثالثاً: الاستطراد في الذكريات لخدمة النَّص/الخروج من الموضوع للدّخول في (النص):

وإذا كان الاستطراد في أساسه خروجاً عن الموضوع إلى موضوع آخر، فإن

---

(١) ينظر السابق: ١/١٥٥–١٥٧.

(٢) السابق: ١/١٢٣–١٢٤.

(٣) ينظر: السابق: ٥/١١٦.

الباحث يؤكد أن كثيراً من الاستطرادات – هنا – تعد دخولاً إلى (النص) في (ذكريات الطنطاوي) لاخروجاً عنه.

فاستطراداته – كما هو واضح – تجود بكثير من المعلومات المهمة: اجتماعية، وتاريخية وجغرافية تعين القارئ على التعرف إلى البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه الكاتب وتساعده على استحضار قيمه وأعرافه وتقاليده، وبالتالي تقوي لدى القارئ الإحساس بالشخصية وما يصدر عنها من أفعال أو ردود عكسية، وتعينه على تفهم مواقف الشخصية وآرائها.

وأكثر هذه الاستطرادات – وإن خفي ذلك إلا على البصير – تلبية لرغبات نفسية ووجدانية؛ كالتعبير عن آمال لم تتحقق، أو التنفيس عن النفس، بالتعبير عما فيها من ألم مُمُضٍّ أو حزن عميق، فهي أقرب ما تكون – بهذا الفهم – إلى المعادل الموضوعي لما يعتمل في النفس من الهموم والعواطف، وما يموج في الذهن من الأفكار والخواطر. وقد سبق ذكر شيء من ذلك عند الحديث عن الاستطراد للتعريف بالشخصيات، فقد لاحظ الباحث أن ما يستطرد إليه الكاتب من تعريفات نابعٌ من محبته لهؤلاء المترجم لهم، ورغبة صادقة في التخفف من الشعور بالتقصير نحوهم، إضافة إلى ما يؤديه ذلك من إرضاء لنزعته إلى التعليم والتأريخ.

وقد حاول الكاتب أن يلفت القارئ والناقد على وجه الخصوص إلى هذا المَلْمح المهم في بعض استطراداته، فعندما أخذ عليه بعض القرّاء استطراده الطويل عند رثاء أمّه إلى الحديث عن الشام وحاراته وأنواع نباته وألوان طعامه، وأعمال النساء الدمشقيات في منازلهن... أجاب بأن مَردَّ ذلك إلى أمرين:

١. أنه منهج له في الكتابة، وطبيعة لا يستطيع الخلاص منها ولا التّنكر لها.

٢. أنه دليل على الحزن والألم. يقول:

«... قال لي ناس: إن كتابتك عن أمك فيها صنعة، والمحزون لا يشتغل ببلاغة القول، ولا يتحدث عن حارات الشام وألوان الطعام فيها. وجوابي أني أكتب عن الحادثة بعد بضعٍ وخمسين سنةً، ولو كتبت عنها في وقتها لما جاء الكلام كما قرأتم، بل لما استطعت أن أكتب أبداً. أما رأيتم أني لمّا حاولت الكتابة عن الحادث الجديد، حادث بنتي لم أستطع؟ ثم إن الأديب لا ينسى صناعته مهما تألم. هذا

رثاء الخنساء أخاها صخراً، ومتمم بن نويرة أخاه مالكاً، وأبو ذؤيب وبشّار وابن الرّومي والتهامي لما رثوا أولادهم، وجرير والطغرائي والبارودي وأباظة لما رثوا زوجاتهم، هل نسي واحدٌ منهم أسلوبه في التعبير، وفنّه في القول، إلا أن ينسى نفسه وينكر طبعه؟ ومتى وصف العامي مشاعر نفسه مثلما يصف مشاعره الأديب؟ فَلِمَ لا يكون الصدق فيما يسميه هؤلاء صنعة؟

ولِمَ لا تكون استطراداتي وكلامي عن حارات الشام وألوان الطعام فيها دليلاً على ألمي؟ من كان في رجله دُمَّلٌ عليه أن يفقأه، يمدّ يده إليه، ولكن تصوّر الألم والخوف منه يبعدها عنه، فهو يدلك الجلد حوله ويتجنب الضغط عليه»[1].

وحين خرج عن صلب الموضوع إلى رحلته إلى ألمانيا علل لذلك بتعليلين، الأول: عاطفي حرك كوامن قلبه، والثاني: عقلي نبهه إلى واجب يوجبه عليه دينه[2].

ووقف في موقع ثالث متسائلاً عن الدّافع الذي جعله ينحرف بالسرد إلى الحديث عن (المحاماة والمحامين) فقال: (لماذا قلتُ ما قلت؟ وما أنا من المحامين، ولاكنتُ قاضياً في محكمة جنائية ولا في دعوى سياسية أسمع فيها مرافعات هؤلاء المحامين؟ لماذا صنعتُ ذلك؟!)[3]. ثم يجيب مباشرة بأن الاستطراد ليس للاستطراد:

«صنعته لأمرين: الأول: أني كنت أتمنى أن أكون محامياً في إحدى تلك القضايا، إذن لجئتُ بالعجب العجاب، ولتركت فيها قطعاً من الآداب الخوالد، لأني أملك بحمد اللّه كل أسباب النجاح فيها، ولا تعجبوا مني ولا تلوموني إن أشرتُ إليها فإنما أذكرها تحدّثا بنعمة اللّه لا تعالياً على عباد اللّه. وإني لأملك بحمد اللّه سرعة البادرة والجواب الحاضر، وصوتاً قويًّا مؤثراً أستطيع أن أتصرف به، وكل ذلك من شروط النجاح في المحاماة، على أنها أمنية من الأماني وقد تختلط الأمنياتُ بالذكريات.

---

(١) السابق: ٢/ ١٤٥.

(٢) ينظر السابق: ٧/ ٢٠٣ ونص ماذكره الطنطاوي هو: (أكتب عن رحلة ألمانيا لسببين: سبب عاطفي حرك كوامن قلبي، وسبب عقلي نبهني إلى واجب يوجبه علي ديني).

(٣) السابق: ٦/ ٢٧٩.

والثاني: أن يكون فيما أكتب درس نافع للمحامين المبتدئين، لأن المحاماة إن كانت دفاعاً عن محق، وردعاً لمبطل، واقترنت بنية الثواب كانت من صالح الأعمال»[١].

كما أن الاستطرادات حتى العلمية منها وسيلة جيدة قد تعين القارئ أو الناقد على تحديد بعض الأبعاد العامة للشخصية الرئيسية، ما كانت لتبرز على نحو من الدقة والوضوح لولا الاستطراد، كالبعد الفوقي / العلمي والثقافي والفكري للشخصية؛ فحين يقف القارئ على استطرادات الكاتب العلمية المختلفة ويجده يخوض في فروع العلوم والمعارف خوض متَمكن واثق؛ يستقر في وعيه ضخامة المخزون الثقافي للشخصية التي تتحرك أمام ناظريه وَسِعةُ اطلاعها ومعرفتها ومشاركتها في شتى المعارف والعلوم والفنون.

وقد يكون ظاهر الاستطراد الرغبة المجردّة في التعليم، ولكن الكاتب يخفي رغبة أكبر في إطلاع القارئ على جانب من جوانب القدرة لدى الشخصية. مثل الاستطراد التالي:

«والذي استفدناه من عبدالحميد بك (هكذا كان يدعى) هو الرّسم عن الطبيعة وأنا أقدر للآن أن أصور من آراه أمامي بالقلم ثم تركتُ ذلك لأنّه لا يجوز.

والطريقة فيه أن تمد يدك بالقلم، وتغمض إحدى عينيك، وترسم أبعد ما بين طرفي الرأس (مثلاً) من أعلاه وأسفله، وَخَطّا آخر لعرض الرأس. والتصوير الجانبي أسهل فتأخذ بعد ما بين أرنبة الأنف والأذن، ثم تحدد مكان الأنف والفم والعين.. ثم تدع القياس وترسم بالخطوط القليلة سمات الوجه المميزة إن كان فيه سمة مميزة، وأساريره وتجاعيده وتبني الملامح العامة وتدع التفاصيل لأن المطلوب في هذا النوع من الرّسم أن يعرف الناظر إلى الصورة أنها صورة فلان. ما لي تركتُ ذكرياتي وصرت مدرس رسم؟! استغفر اللّه فما أردتُ ذلك. ولا أُفتي بجوازه...»[٢].

فأيَّ شيء يريد الكاتب من استطراده السابق؟! هل كان إشباعاً للرغبة في أن

---

(١) السابق: ٦/ ٢٧٩.

(٢) السابق: ١/ ٩١.

يعلم أو يسامر؟!. لا أظن، إذ كيف يُعلّم المرء شيئاً وهو يرى حرمته ويعتقدها؛ ولكنها محاولة غير مباشرة لتقديم ملمح خفي من الشخصية إلى القارئ مشفوع بدليل قوي يؤكد مقدرته على الرسم وإتقانه لمهاراته.

وقد يقوم الاستطراد أيضاً بوظيفة تسجيلية يحفظ به الأدوار التي لعبتها الشخصية أثناء مسيرتها الطويلة مثل الاستطراد إلى ذكر الجهود التي بذلها مع بعض زملائه وأصدقائه من أَجل إنشاء أول قسم للدراسات العليا في مكة المكرمة، وقد تمّ لهم ذلك، وكان أوّل قسم للدراسات العليا بالمملكة العربية السعودية[١]. وكذلك تسجيل ما قام به من أعمال للتعجيل من انفصال سوريّا عن وحدتها مع مصر زمن عبدالناصر[٢]. وكذلك سَجّل بواسطة الاستطراد اختلافه مع جمال عبدالناصر في حياته ووضح أنه كتب في ذلك رسائل لم تنشر في مجلة أو جريدة، ولكن طُبع منها أكثر من نصف مليون نسخة، وترجمت إلى عدد من اللغات كالأوردية والإنجليزية، ثم قدّم مقالة واحدة مما كان ينشره آنذاك ليوضح للقارئ أنه لم يداهن أحداً ولم يبدل مواقفه بتقلبات الأحوال، وليسجل هذه المواقف والأدوار للتأريخ، وكان ذلك في استطراد طويل أجاب فيه عن بعض ما نشره الأستاذ (أحمد أبو الفتح) في جريدة (الشرق الأوسط)[٣].

ومن الاستطراد ما ينهض بأعباء توضيح النص وتقويمه بتقييده أو إطلاقه، أو بشرح بعض المصطلحات الاجتماعية حين تفقد دلالتها أو معناها عند القارئ لتطاول الزمان ولتبدل الأعراف الاجتماعية، مثل شرح كلمة (أفندي) إذ قال:

> **«لعلكم تنبهتم إلى أنني دعوته زاهد أفندي، ولقب (أفندي) مرّت عليه أدوار، فكان في الأصل لقباً لابن السلطان، يقابل لقب (البرنس) عند الإفرنج، فإذا لقب به الشيخ دل على أنّه ولي القضاء أو الإفتاء، لذلك كانوا يسمون المفتي والقاضي: قاضي أفندي ومفتي أفندي.**

---

(١) ينظر السابق: ٨/١٤٦–١٤٨.

(٢) ينظر السابق: ٦/٥١–١٠٧.

(٣) ينظر السابق: ٨/١٥–٢٣.

ثم هبطت قيمة (الأفندي) حتى صارت تطلق على كُلّ واحد من الناس، ولما كنا ندرس في مصر أيام الملك فؤاد، كانت الألقاب تمنح من الملك، وكان لها نظام وقانون، فكان الأفندي إذا أخذ لقب (بك) لصق باسمه ودعي بصاحب العزة، وهي مترجمة عن الاصطلاح العثماني (عزتلو أفندي)، فإن ارتقى صار صاحب السعادة، ولُقّب بالباشا، وأُحدثت في مصر في أواخر عهد الملكية ألقاب جديدة، منها صاحب المقام الرفيع، وأظن أن أول من لُقّب به: النحاس باشا»[1].

وقد يكون الاستطراد نفسه بثّاً أو تعبيراً عن فكرة ظلتْ حبيسة نفسه أو مجالسه الخاصة زمناً طويلاً، مثل تشككه في عدم دقة الحسابات المالية، والتعريض بالأستاذ (سعيد رمضان المصري)[2]. وكان الأمين العام لمؤتمر القدس الاسلامي الذي تولى جمع الأموال أثناء رحلة الطنطاوي والشيخ أمجد الزهاوي إلى عدد من البلدان الإسلامية للتعريف بالقضية الإسلامية في فلسطين، فقد ذكر الكاتب أن الأمين لم يقدم كشفاً حسابيًّا بالأموال: كيف تسلمها ولا أين أنفقها:

«إننا جمعنا في هذه الرحلة لفلسطين أموالاً طائلةً ما تسلمنا بأيدينا قرشاً واحداً منها بل دللنا المتبرعين على من سموه الأمين العام للمؤتمر، وهو الأستاذ سعيد رمضان (المصري لا البوطي) فأرسلوه إليه. وما تسلمتُ من المال إلا بمقدار ما أدفع منه أجور السفر والفنادق، والنفقات التي لابُدّ منها، ولا غنى عنها، فلما عدتُ قدمت إليهم حساباً عنها كلها، مربوطاً به وثائقها.

ولكن ما أرسل الأَستاذ سعيد رمضان حساباً، ولم أعرف كيف أنفق المال ولا أين ذهب، فلما كانت الدورة الثانية للمؤتمر في دمشق، أصررت على أن يُطلع المؤتمرين على حسابها، وقلتُ إنني لا أتهمه، ولا يحق لي أن أتهم أحداً، ولكن أطالب بما يطلبه الدين وتطلبه الأمانة وما هو الحق، فلمّا لم يستجيبوا لي قاطعت

---

(١) السابق: ٤/٢٥٠ وزاهد أفندي هو قاضٍ من قضاة دوما المشهورين ممن لم يلتقهم الطنطاوي.

(٢) **سعيد رمضان المصري**: ١٣٤٤-١٤١٦هـ / ١٩٢٦-١٩٩٥م.

خطيب وداعية نشأ في طنطا، ودرس الحقوق بجامعة القاهرة، وانضم لجماعة الإخوان المسلمين، وصاهر مرشدها الشيخ حسن البنّا، ضُيق عليه، وحُكم بالإعدام، فسافر إلى جنيف، وسحبت جنسيته المصرية أيام جمال عبدالناصر. أصدر مجلة المسلمون، وقد كتب الطنطاوي تشككه هذا ونشره في حياة الأستاذ سعيد. (ينظر: أحمد العلاونة: ذيل الأعلام: ١/٩٢-٩٣).

المؤتمر فلم أحضره. وقد بلغني أن واحداً من الأساتذة المعروفين من الإخوان المسلمين في حلب، قام فيهم خطيباً فنال منهم موافقةً على بياض، على حساب لم يقدم ولم يطلع عليه أحد.

أعفوه من تقديم الحساب ولكن بقي الحساب الأكبر يوم العرض على الله، هنالك ينكشف الغطاء ويبرح الخفاء فمن أكل قرشاً من مال الله، أو وضعه في غير موضعه، أو ستر على هذا الآكل، وإن لم يشاركه الأكل، كان شريكه في الإثم، هنالك ينال كُلّ ما يستحق.

وليس الصلاح بتجميل ظاهر الحال، ولابتحسين المقال، بل إن المقياس المعاملة. وعمر لما جاء رجل يزكي عنده رجلاً سأله: هل عاملته؟ هل سافرت معه؟ فلما قال: لا، ردّ شهادته ولم يسمع كلامه»[1].

والطنطاوي رجل شديد الحساسية عظيم التوجس من مغبّة الفهم الخاطئ، لذلك نجده يفيد من الاستطراد في دفع غوائل الفهم السقيم عنه. فحين ذكر في الحلقة الرابعة والعشرين بعد المئتين (٢٢٤) أن التلبية التي تذاع من الرائي ليس فيها حماسة المسلم ولا تتجلى فيها روعة المناجاة، وأنه قد قام بتسجيل التلبية بأسلوب جديد[2] عاد ليشرح الأمر حتى لا يعلم عنه دعوى الابتداع، وقد استغرق منه هذا الاستطراد نحو ثنتي عشرة صفحة(٣) وحين قال عن بعض من ذكر أسماءهم: إنهم تلاميذه؛ توقف متواضعاً لئلا يظن به الكبر والتعالي ليقول:

«وإن أنا ذكرت في هذه الحلقات طائفة من الناس قلتُ: إنهم تلاميذي فرب تلميذ فاق أستاذه. عمل الأُستاذ يا أيها القرّاء مثل وادٍ بين جبلين في وسطه جدولٌ صغير، لا يستطيع السائح أن يصل من الجبل إلى الجبل حتى يقطع الجدول، وليس على الجدول جسر يجتاز الناس من فوقه، فقام عليه من يجيز المسافرين، ينقلهم من ضفة إلى ضفة حتى يصل بأحدهم إلى الجانب الآخر، ثم يؤم الجبل صُعُداً، فيبلغ منهم ناس عاليه وهو لا يزال في مكانه.

---

(١) السابق: ٥/١٢٥-١٢٦.

(٢) ينظر السابق: ٨/١٦٣-١٦٤ الحلقة ذات الرقم (٢٢٤).

(٣) ينظر السابق: ٨/١٦٥-١٧٦ الحلقة ذات الرقم (٢٢٥).

هذا مثال الأستاذ، فأنا إذا قلتُ: إن فلاناً وفلاناً كانا من تلاميذي فإنما أعني السبق الزمني التاريخي، ولست أعني أنهم يبقون التلاميذ دائماً وأبقى الأستاذ دائماً»(١).

والاستطراد أيضاً وسيلة من وسائل توجيه التصرفات عندالكاتب، التي لم يكن راضياً عنها كل الرضا فبالاستطراد يمارس على هذه الأعمال أو الأَفعال فعل الرقيب الذي لا يصادر الحقائق السلبية حين لا يستطيع أن يغض الطرف عنها أو يضحي بها؛ لأنه قد التزم الصدق أمام نفسه وأمام قارئ ذكرياته، ولأنه يريد – بحق – أن يعرف نفسه، ولكن فعْل الرقيب الحسيب الذي يوضح الأسباب ويشرح الدّوافع، ويوجِّه الفعل أو يسوّغه، ويبين للقارئ وجه الصواب أو الخطأ وحكم الشيخ (علي الطنطاوي) الآن على ما فعله الشاب (علي الطنطاوي) آنذاك. ومثل هذا اللون من الاستطراد – في ظني – غاية في الأهمية لمكانة الطنطاوي في نفوس الناس، وبخاصة أن بعض العامة لا تستطيع الفصل بين السلوك والفكر وبين الفعل الصادر من الفقيه وبين الحكم الفقهي، ولا تقيم وزناً للاعتبارات الزمانية والمكانية، ولا تأخذ بالحسبان جانباً طالما لفت إليه الطنطاوي الأنظار وهو: أنه يتحدث عن (طنطاوي) آخر لم يبق معه منه شيء، وأنه ليس (الشيخ) الذي يرونه ويسمعونه ويقرأون له فصولاً من الفتاوى الشرعية بين الفينة والأخرى، وأنّه رجل مَرّ بمراحل تكوين كثيرة تشكل في كل طور منها جانب مهم من جوانب شخصيته فكريًّا ونفسياً(٢).

«وانفض الجميع فذهب المعلمون إلى بيوتهم، وصحبت المدير إلى دار السيد (الذي صار من بعد شيخا بجبة وعمامة) منير لطفي الذي دعانا إلى العشاء، وكنت من صغري أكره الدّعوات، ولكني لم أكن قد اتخذت رفضها سُنَّة دائمة لا أحيد عنها، كما أفعل من عشر سنوات.

وأنا لا أحبذ المخالفة عن سنة رسول اللّه...، فسنته هي الطريق المستقيم، وهي الرأي الحكيم، ولا أدعو أحداً إلى تقليدي، بل أدعوه إلى إجابة دعوة الأخ المسلم فهي

---

(١) السابق: ١٤٣/٥–١٤٤.

(٢) ينظر السابق: ٩/١–١٠، ١٥، ١٨٣–١٨٤، ٢٧٥.

من حقه عليك. وأنا أستغفر اللّه من رفضها والهرب منها، وما فعلتُ ذلك إلا أنّه أنسب لحالي، وأعون على إنجاز أعمالي، وأحفظ لوقتي، ولو أني أجبت كل دعوة، واستقبلتُ كل قادم، وودعتُ كل مسافر، وهنّأت كل مسرور، وعَزَّيتُ كل مصاب، وكل هذا مطلوب ومحبوب يقوي المحبة ويزيد الأُلفة. ولكني لو فعلته لما كتبت شيئاً ولا خطبت ولا حاضرت، ولما وجدت وقتاً لا لمطالعة ولا لمراجعة، وحياتي كلها ثلثها نوم، وثلثها عمل لابُدّ منه ولاغناء عنه، والباقي منه أنفقه أكثره في المطالعة، فهي أنس نفسي، وغذاء عقلي، ولو أني أجبت دعوة إياد واعتذرت لعمرو لأغضبت عمراً؛ لذلك أعم بالاعتذار الجميع، وأستغفر اللّه. ومن عذري أن من يدعوني يطعمني ما هو ألذ من طعامي المعتاد، ولكنّه يسلبني حريتي في اختيار وقت الأكل، وتحديد نوعه، وانتقاء من يأكله معي، وربما أطعمني ما لا أريد مع من لا أحب في غير الوقت الذي أريد أن آكل فيه لذلك أهرب من الدّعوات، ولا أنصح أحداً أن يفعل فعلي. هذا كُلّه في الولائم الرسمية، والدعوات التي يتكلف لها، ويحتفل بها، أمّا أن أكون عند صديق لا أحتشمه فيحين موعد الطعام؛ فيأتي بما تيسر، أو يكون عندي فأقدم له ما حضر، فهذا من باب آخر.

ومن هذا الباب الآخر كان عشاؤنا أنا والمدير عند أخينا منير. ولما قضي العشاء اقترح...»[1].

وفي استطراد آخر نجد الطنطاوي يقرر حقيقة مهمة رغم بساطتها، وهي أنه لم يتنكب طريق الدعوة إلى اللّه، منذ اتصل بالقلم حتى في أبعد الموضوعات عن دائرة الوعظ والدعوة. فقد ذكر أنه عمل في بداية اتصاله بالصحافة عام ١٩٣٠م في جريدة (ألف باء) عند الأستاذ (يوسف العيسى) محرراً فنياً، ثم خشي أن يفهم عنه أن عمله هذا بعيد عن الدّعوة والإصلاح فاستطرد لدفع هذا التوهم:

«أما موضوع المقالات التي كنت أكتبها في (ألف باء) فشيء تعجبون منه إذا عرفتموه. كنت أكتب عن أفلام السينما فصولاً قصاراً، هي وسط بين تلخيص القصة وبين نقد التمثيل، ولا يزال عندي كثير من هذه الفصول التي كتبتها من أكثر من نصف قرن، فيها قصص ومشاهد من الحياة وغرائب من وقائعها ومثال

---

(١) السابق: ٢/٢١٦-٢١٧.

من موضوعات الأفلام في تلك الأيام، ولا تخلو من تعليق فيه عبرة، ومن نصيحة أو موعظة، وأقوى المواعظ أثراً ما جاء عرضاً من حيث لا يتوقع السامع، لذلك كانت كلمة وعظ من مدرس فيزياء أبلغ (أحياناً) من محاضرة من مدرس الفقه، وقد شاهدت في المحكمة أن الطعنة التي يتوقعها الإنسان لا تبلغ منه ما تبلغه واحدة مثلها من الغافل عنها»[١].

وقد اضطرّ أيضاً إلى أن يتمادى في استطراده السابق ليدفع عن نفسه الاتهام أو ظن السوء، قائلاً:

«وقد تحسبون أني كنت من روّاد السينمات، ومن العاكفين على الملاهي، لا واللّه، ولقد حزتُ شهادة البكلوريا ولم أدخل السينما إلا مرّة واحدة، هي التي أخذونا إليها ونحن صغار أيام الحرب الأولى، فأرونا مشاهد من حرب (شنا قلعة) عند المضيق قرب اسطنبول، ما فهمتُ منها شيئاً.

ولم يكن يمنعني من السينما ومن أمثالها أبٌ ولا أخ، فقد عرفتم أن أبي رحمه اللّه مات وأنا في الصف الثامن سنة ١٣٤٣هـ وأنه ليس لي أخٌ أكبر مني فأنا بكْرُ والديّ، ولكن منعني منها ما رُبِّيت عليه من الدين، ومن كنت أتصل به وأحضر مجالسه من العلماء، وثالثة ليست دونهما هي أني لم أتخذ رفيقاً إلا من المدرسة وداخل المدرسة.

ولقد كنتُ أرى في السينما (حتى لما صرت أتردد عليها) أجمل ملهاة للشاب، وأخطر ملهاة، وأنها كالسم المحلول في كأس الشراب اللذيذ، لا يكاد يذوقه حتى يسيغه ثم يألفه فيعتاده فيقضي عليه، فلمّا جاء (الرّائي) رأيناه أخطر علينا منها، لأن السينما لانرى ما فيها حتى نذهب نحن إليها، والرائي يجيئ هو إلينا والسينما لانحضرها إلا إن حجزنا لنا مكاناً فيها، ولبسنا الثياب الصالحة لها، ودفعنا أجرة الدّخول إليها، والرَّائي نراه في جميع الأحوال بلا تعب ولا مال. فلما جاء (الفيديو) وأنا سمعتُ خبره وما اقتنيته، هان علينا أذى السينما والرائي، فهل تأتينا الأيام والليالي بمصيبة جديدة يهون معها (الفيديو؟).

لما عرض علي الأُستاذ يوسف العيسى هذا العمل قبلته فرحاً، لأني سآخذ

---

(١) السابق: ٢/ ٣٠-٣١.

بطاقة أدخل بها السينما متى شئت بالمجان، وأرى ما شئت من الأفلام، ولكني لما جربت العمل ضقتُ به، وكرهته. والناس يدخلون السينما للمتعة، وأنا أدخل للعمل وحين تصير المتعة واجباً تفقد جمالها، هذه هي طبيعة النفس البشرية.

كان الحاضرون يتابعون الفلم، يعيشون مع أحداثه، يشعرون شعور أبطاله يخالطونهم، يحبون بعضاً منهم ويكرهون بعضاً، ويحقدون على بعض ويشفقون على بعض، يكونون بنفوسهم مع الفلم، وأنا بعقلي مع الورق والقلم أدون ملاحظاتي في الظلام، لأخرج فأصوغ منها الفصل، فهل ترون أنه يبقى لي شيء من الاستمتاع به؟.

ما كنتُ ناقداً فنيًّا، ولا خالطت أهل الفن ولا عاشرتهم، وما كانت لدينا مسارح. إنما كان يزورنا بعض الفرق المصرية التمثيلية، فرقة يوسف وهبي (أي فرقة رمسيس) وفرقة فاطمة رشدي التي كانت تحاول أن تجاريها أو أن تزاحمها. وجاءتنا مرّة فرقة أمين عطا اللّه، وهو لبنانيٌّ (كما أظن) يقلد نجيب الريحاني، أمّا فرقة فاطمة رشدي فلم أحضر تمثيلها، وحضرت تمثيل الفرقتين الأخريين. منهما (أي من الرواية التي حضرتها لكل منهما) كان علمي (كله) بالتمثيل، وكان اشتغالي بالروايات الخمس التي أَلَّفْتُها وَعَلَّمْتُ التلاميذ تمثيلها.

وبلغ من إعجابي بمسرحية يوسف وهبي التي شاهدتها أن قمت من بين الناس بعد إرخاء الستار فألقيتُ خطبة... في التعليق عليها... والإعجاب بها!!

وكان يوسف وهبي يعرف التصفيق وصيحات الإعجاب، ولكن لم يرَ يوماً من يقوم فيخطب في مدحه، فعاد فرفع الستارة، ووقف الممثلون جميعاً، وجعلوا ينصتون لما كنتُ أقول، ثم ينحنون لي شاكرين، وتضج الدّار بالتصفيق وكان ذلك في (العباسية) القديمة، وكانت حماقةً مني، ونزوة شباب أخجل من ذكرها وإن ذكرتُها»[1].

وأحسب أن الاستطراد هنا قد أعان الكاتب على المضي في بوحه ليعترف بحقائق مهمة يصعب على مثله ومن في مكانته أن يبوح بها؛ لولا أنّه قد وعد بأن يقول الحق ما استطاع، وأنه مَهّد لنفسه بهذا الاستطراد واحتاط لها ببيان موقفه الأخير منها وأنها: كانت حماقة منه، ونزوة شباب يخجل من ذكرها وإنْ ذكرها.

---

(١) السابق: ٢/٣١-٣٢.

ومثل هذا النوع من الاستطراد – على الأقل من جهة الأمانة والمصداقية ودفع الريب عن النفس – ضرورة تشفع للكاتب، وتمنح الاستطراد بُعْداً نفعيًّا جديداً، ولو قلنا بُعداً له وجاهته لما تجاوزنا دائرة الصواب. ذلك لأن الدراسة تنظر إلى الاستطراد بصفته تقنية خاصة اعتمد عليها الطنطاوي ووظفها لغاياته ومآربه فيما يكتبه أو يحدث به، وأداة من الأدوات الأدبية التي استخدمها في تقديم حياته إلى الناس؛ بعيداً عن التجهّم والتزمت في محاكمتها، بل تقبلها على أنها مشهد من مشاهد النمو والتطور والتمايز بين الأدباء، وآية من آيات التنوع وثراء التجربة وعمق الصراع. وتشعرنا أننا بإزاء حياة متحركة، وشخصية نامية تتدفق نشاطاً، وليست شخصية متحجرة (متكلسة).

رابعاً: الاستطراد بين النفع والإمتاع:

وأحسب القارئ الكريم قد لاحظ أن الاستطرادات – على عمومها – في (ذكريات علي الطنطاوي) ليست من قبيل الثرثرة التي لاطائل تحتها كما قد يُتوهَّم، أو كما نجدها عند بعض الكتاب مثل: أحمد فارس الشدياق في كتابه (الساق على الساق في ما هو الفارياق) فإن أغلب استطراداته في الكتاب كانت من قبيل الثرثرة والحديث المطوّل لامتحان صبر القارئ، وجلده على مواصلة القراءة – كما ينص على ذلك بنفسه في بعض فصول الكتاب حين وعى أنه يثرثر فينغص دون أن يُعلِّم أو يُمتع، يقول: «لابُد من أن أطيل الكلام في هذا الفصل امتحاناً لصبر القارئ. فإن أتى على آخره دفعة واحدةً من غير أن تحترق أسنانه غيظاً أو تصطك رجلاه غيرةً وحميّةٍ. أو ينزوي ما بين عينيه أنفةً وحشمةً، أو تنتفخ أوداجه وَغْراً وهوجاً؛ أفردت له فصلاً على حِدَتِه مدحاً فيه وعددتُه من القرّاء الصابرين...»[1].

وثرثرتُه لا تتوقف عند حدود هذا الفصل الذي أشار إليه فيما استشهد به الباحث آنفاً بل تتجاوزه إلى جميع أجزاء الكتاب وفصوله.

وأعتقد أن الشدياق بهذا قد انحرف بالاستطراد عن وجهته التي تُجمِّله،

---

(١) الفصل الثاني عشر: ١٣٤.

وتحمل المدافعين عنه إلى ناحية أخرى، يجمع كُلّ من حاكمها على رفضها؛ لأن الثرثرة لا تخدم الفكر ولا تغني الوجدان بالعواطف، فكيف إذا كانت (الثرثرة) مستكرهة مثقلة بأصناف الغريب والوحشي من مترادفات اللغة تساق سوقاً ثم تركم في السياق ركماً، دون روح توحد بينها أو غاية نبيلة تسمو بها[١].

ولذا حرص صاحب الطراز في أثناء مناقشته لبعض الاستطرادات في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وما ساقه من الشعر العربي على استخراج الفائدة والتنبيه عليها[٢]، لأنها – عنده – مرجع حكمه على الاستطراد بأنه: (حسن كُلّه)[٣].

أمّا الرّماني فإنه ينص على أن الفائدة تشفع لما قد يقع في الكلام من بُعْدٍ عن المراد، وتنكب لطريقه القاصد الواضح وذلك عند حديثه عن الفرق بين الإطناب والتطويل، حيث قال: «أما التطويل فعيبٌ وعَيّ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفي فيه القليل، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب. وأمّا الإطناب فليس كذلك؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة؛ فيحصل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب»[٤] وما نعوِّل عليه هنا هو المرتكز النقدي الذي يعتمد عليه الرُّماني في تفضيل الإطناب على التطويل، وهو تحقق الفائدة؛ فالطنطاوي يصدر عن الرؤية البلاغية نفسها في استطراداته، يقول:

«ثقوا أن هذه الاستطرادات ربما كانت أنفع لي ولكم من مجرد سرد الوقائع»[٥].

ويؤكد ذلك في موضع آخر في ثقة وحزم:

---

(١) لتقف على نماذج من ذلك ينظر: الساق على الساق: ٧٧–٨٧.

(٢) ينظر يحيى بن حمزة العلوي: ٤٠٤–٤٠٦.

(٣) السابق: ٤٠٤.

(٤) النكتُ في إعجاز القرآن: ٧٢–٧٣.

(٥) الذكريات: ٢٩٤/٧.

«تقولون لقد خرجت عن الموضوع!! نعم، وإن هذه الذكريات لم تعد ذكريات وإنما صارت مواعظ... نعم هذا صحيح. ولكن من قال لكم: إن المواعظ مذمومة دائماً؟ وإنّه يجب الإعراض عنها وتركها دائماً ولو وقفت عليها حياتنا وسعادتنا ورضا ربنا؟»(١).

ويكاد يكرر قول الرماني السابق حين يعتذر عن الاستطراد فيقول:

«نعم لقد خرجت عن خط الذكريات، ولكن ما خرجت لأضطجع على كتف طريقها فأستريح، ولا لألعب وألهو ولكن تركته لأقطف لكم من جوانبه باقة من أغلى الأزهار، ولآتيكم بسلّة من أنفس الثمار»(٢).

وقد سأله الباحث عن الاستطراد في ذكرياته، فكانت إجابته موافقة لما ذكره سابقًا، فقد قال: إن الاستطراد أسلوب معروف ومشهور وهي طريقة كتب الأدب القديم. وإنَّ فيها فائدة كبيرة للمتلقي لا يود أن يهملها فلا يذكرها وبخاصة حين يعلم أن تركها يُضيِّع على المتلقي فائدة ثمينة(٣). وهذان الاعتذاران يتكرران في أكثر من موضع في ذكرياته(٤) – كما أسلفنا –. وهما يذكراني بإجابة مشابهة للدكتور زكي مبارك وقد لامه أساتذة السربون على شيوع الاستطراد في بعض مؤلفاته، فاعتذر قائلاً: «إني أميل إلى هذا النحو الموروث في التأليف؛ لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك، والقارئ هو الغانم على أي حال»(٥).

ومن العجيب حقاً أن الجاحظ قد احتج للاستطراد في كتبه بأن الأوائل قد سارت في كتبها هذه السيرة، وأنّه إنما يستعمل في كتبه ومؤلفاته سيرة الحكماء وآداب العلماء(٦). وإذا تجاوزنا الاحتجاج إلى الاعتذار وجدنا كُلاً من الطنطاوي وزكي مبارك يبرر الاستطراد عنده بالفائدة والمنفعة.

---

(١) السابق: ٤/٢٢٨.

(٢) السابق: ٨/٢١٧.

(٣) مقابلة معه: الليلة الثامنة من / رمضان / ١٤١٧هـ (بمنزله – مكة).

(٤) ينظر الذكريات: ٦/٢٣٧، ٧/١٠٧، ٢٢٢.

(٥) النثر الفني في القرن الرابع: ١/٨.

(٦) ينظر: الحيوان: ١/٩٣–٩٤. وقد ذهب د. شوقي ضيف إلى أنه يقصد بالعلماء والحكماء: علماء الهند وحكماءها، وأعتقد أنه يقصد بهم الكاتب عبدالحميد وزمرته من المستطردين.

ولاشك أن (النفع) غاية مشروعة في الآداب والفنون، وهي عند الطنطاوي مقدمة على غيرها من الغايات، لأن الأدب عنده رسالة، والكتابة لديه علم وإصلاح[١].

إن (الاستطراد) – عند الطنطاوي – بصفته وسيلة ومنهجاً استطاع أن يقوم بأعباء الرسالة التي يحملها الطنطاوي ويودّ لو بلّغها عقل القارئ وقلبه، دون أن يكلفه ذلك مزيد تأنٍ أو احتشادٍ فني. وليس من شأننا أن نلزم الكاتب طريقةً لا تتفق مع فكره ورؤيته، ذلك أننا نريد أن يكون الأدب صورة صادقة عن الأديب وانعكاساً لظروفه وواقعه، فالأدب ليس ثوباً يصلح لكل لابس، ولاهو رسومٌ ومواضعات يجب أن تكون أو لا تكون؛ بقدر ما هو تميز في حال الائتلاف والاختلاف.

على أن قيمة الاستطراد لا تعود إلى ما يقدمه من (النفع/الفائدة) فحسب وإن كان ذلك أصلاً فيه وأساساً له، ولكن لما يحققه – أيضاً – من (متعة) حين ينتقل بالقارئ من موضوع إلى موضوع كما يتنزّى الطائر فوق أيكته من فنن إلى فَنن، ولما يقدمه من لذّة عند مخاطبته لغريزة التعرف والاستكشاف (حب الاستطلاع – *CURIOSITY*)[٢] عند القارئ. ويظهر أن هذه الوظيفه (الإمتاعية) هي الوظيفة الوحيدة التي فطن إليها الجاحظ للاستطراد لديه، وذكرها صراحة في بعض كتبه، مما حدا ببعض المهتمين إلى أن يجعلوها محوراً يُرتكز عليه في صياغتهم لمفهومٍ فني خاص عن الاستطراد عند الجاحظ[٣]، وإن لم يُرفد ذلك بدراسة تطبيقية تؤصل هذا الفهم وتؤكد مصداقيته.

---

(١) ينظر: علي الطنطاوي: صور وخواطر: ٢٠٢ وما بعدها، الذكريات: ٢٠٢/٢–٢٠٧، أنور الجندي: المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام ٧٦٠ وماقبلها وما بعدها.

(٢) عرّف ماكدوجل (الغريزة) بأنها: (استعداد عصبي نفسي يدفع صاحبه إلى أن ينتبه ويدرك مثيرات من نوع معين، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند إدراكها، ويسلك نحوها مسلكاً خاصاً، أو على الأقل يشعر بدافع إلى أن ينزع نحوها هذا المسلك). وقد حدد ماكدوجل عدد الغرائز لدى الإنسان وحصرها في ثماني عشرة غريزة، وذكر منها غريزة (حب الاستطلاع – *CURIOSITY*) ينظر: د. عبدالله عبدالحي موسى: المدخل إلى علم النفس: ٢٢٩–٢٣٠ وما بعدها، د. عبدالرحمن عسيوي: دراسات في السلوك الإنساني: ١١٨–١٢٢.

(٣) مثل د. شوقي ضيف في: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ١٦٦–١٦٩ ود. أحمد مطلوب في: معجم =

وقد امتدح أحد المعنيين بالأدب والإعلام الاستطراد ورآه مما يحسب للكاتب ولا يحسب عليه، وبخاصة حين تكون كتاباته مُعدّةً لصحيفة سَيّارة – كما عليه الحال في ذكريات الطنطاوي هنا – ؛ لأنها أقرب إلى إمتاع القرّاء وتسليتهم وتثقيفهم في آنٍ واحد[١]. ورأى أستاذ إعلامي آخر أن هذه الطريقة هي قمة فن المقال الصحفي، وذروة الأدب الإعلامي الممتاز[٢].

والاستطراد – بعد ذلك – يتفق مع الملامح الشكلية والظروف العامة التي أحاطت بالمؤلف وكتابه، ويتساوق مع سائر تقنيات العمل وآلياته. فكل شيء في (الذكريات) موح بالبساطة والعفوية، والانطلاق على السجية، والتبرُّؤ من ضيق الحدود والقيود؛ بإرخاء العنان للقلم ليندفع وراء رغبات النفس وسبحات الفكر، وحاجات القارئ وتساؤلاته، دون تنكرٍ لمهمة الكتاب الأساسية وهي تدوين ذكرياته ورصد سيرته وتقلباته في الحياة.

=

المصطلحات البلاغية وتطورها: ١/ ١٣٠ ود. إنعام عكاوي في المعجم المفصل في علوم البلاغة: ٨٧–٨٨ ود. عبدالله باقازي: القصة في أدب الجاحظ: ٥٣–٥٧.

(١) ينظر د. محمد عبدالحكيم محمد: زكي مبارك جاحظ القرن العشرين: ١٣٧ (مقالة – مجلة الأزهر).

(٢) السابق، والأستاذ هو الدكتور إبراهيم إمام.